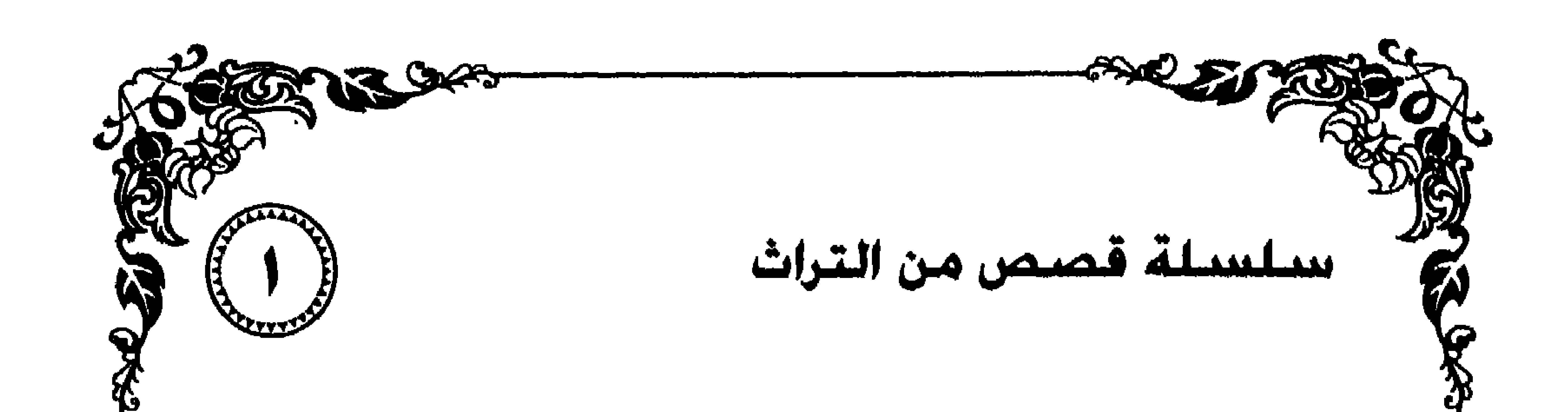
سلسلة
قصص من التراث

- ابو جندل وابو بصير
- عمر في القدس
- القاضي والأمير
- ابو نصر الصياد
- حصار عكا
- الرجل الصالح
- الهارب من والديه
- فتية أذكياء
- الحجاج والأمير
- العفو عند المقدرة

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان



سلسلة قصص من التراث

(١)

أبو جندل وأبو بصير

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

أبو جندل وأبو بصير.- الرياض.

٢٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٧ - ٩٨٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٣

ردمك: ٧- ٩٨٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٣

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

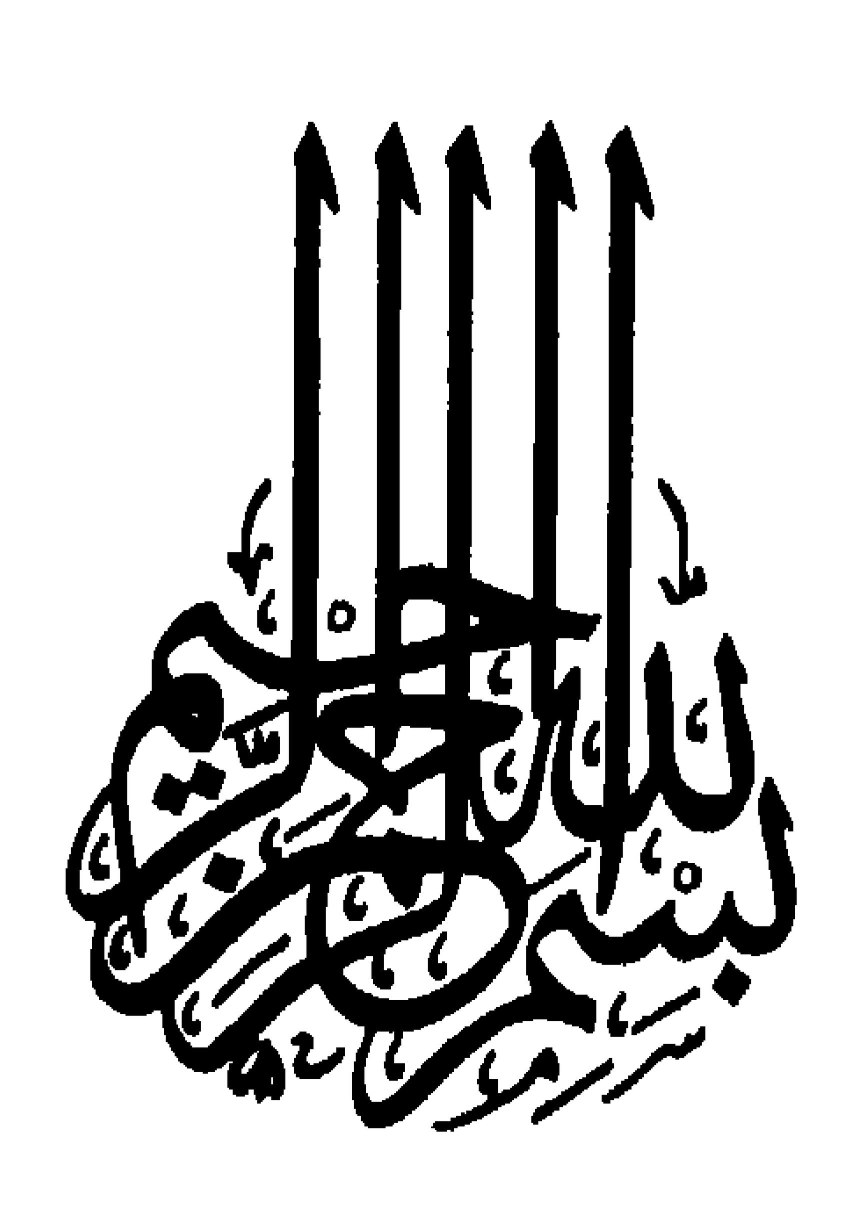
الناشــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



كتيبة المستضعفين

هَا نَحْنُ في السَّنةِ السَّادسةِ مِنَ الهجرةِ، وفي شهرِ ذي القعدةِ.

المسلمونَ يتَّجهُونَ معَ نبيهم الكريمِ إلى مكةَ المكرمةِ لأداءِ العمرةِ..

لقدَ طالَ الشوقُ إليها..

لمْ يكنْ مع المسلمينَ إلا سلاحُهم الخفيفُ، السيوفُ في أغمادِها، وبعضُ النبلِ والرِّمَاحِ.. وكلُّهم في ثيابِ الإحرامِ.

انتشرَ الخبرُ في مكةَ، فهاجَ الكفارُ وَجُنَّ جُنونُهم، تحركَ زعماؤُهُم وعقدُوا جلسَاتٍ سريعةً وعديدةً.. وأخيراً قرروا صَدَّ المسلمينَ عنْ مكةَ.

أرسَلُوا العيونَ(١) والفرسانَ لتأتيَهم بالأخبارِ، وسرعَانَ ما جاءتِ الأخبارُ مزعجةً.. فالمسلمونَ كُثْرٌ، ولا يريدونَ المواجهةَ وهمْ في الشَّهرِ الحرامِ، فكيفَ يواجهونَ مَنْ جاءَ معظمًا للبيتِ الحرامِ؟!!

وكانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدْ أرسلَ لهم أنَّهُ جاءَ معتمرًا ولا يريدُ حربًا، وقال: «والذي نفسِي بيدهِ لا يسألوني خطةً يعظِّمُونَ فيها حُرماتِ اللهِ إلا أعطيتهم إياها».

احتارَ المشركون في أمرِ المسلمين ماذا يفعلون لهم؟!

(١) العيون: الجواسيس وطليعة الجيش.

أيحاربونَهم أَمْ يصدونَهم؟

لقدْ قررُوا الاستيلاءَ على آبارِ الماءِ التي في طريقهم حتَّى يملُّوا ويعودوا من حيثُ أَتَوا..

تحرَّكَ المشركونَ واحتلوا آبارَ الماءِ التي في طريقِ المسلمينَ.. ولمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلكَ أحبَّ ألا يصطدمَ معهم، فقررَ تغييرَ طريقَهُ وسارَ إلى الحديبيةِ..

وهناكَ في الحديبيةِ عَطشَ المسلمونَ عَطَشًا شديدًا، فقدْ نفدَ الماءُ لَديْهم وكَادُوا أن يهلكوا، ولَمْ يجدُوا في الحديبيةِ إلا بئرًا واحدةً مهجورةً لا ماءَ فيها..

هنا دعا رسول الله ﷺ بدلوٍ من ماءٍ فتوضأَ فيه ومضمضَ فاهُ ثمَّ مجّ[1] بهِ وأمر أن يُصبَّ ما بقي من الدلو في البئرِ، ونزعَ سهمًا من كنانتهِ فالقاهُ في البئرِ، ودعَا اللهَ تباركَ وتعالى فثارَ[2] الماءُ فيها وجعلَ الصحابةُ ينهلونَ منَها ويشربونَ ويتوضأونَ ويملأونَ أوعيتَهم.

سُئِلَ جابرُ بنُ عبدِالله - رضي الله عنه - كَمْ كنتمْ؟ قالَ: لَوْ كُنَّا مائةَ ألفٍ كفانا، كنّا خمس عشرةَ مائة.

---

(١) مج الماء: لفظه ورماه.

(٢) ثار الماء: نبع بشدةٍ.

علمتْ قريشٌ بالمعجزةِ فَذَهلتْ مِنْ ذَلكَ، وأحبتْ أن تنهيَ المشكلةَ بصلحٍ يحفظُ لها ماءَ وجهِهَا.

أرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ ليفاوضَ المشركينَ.. وصلَ عثمانُ إلى مكةَ فاحتبستهُ قريشٌ عندَها حتى يتشاوروا.. وشاعَ بينَ المسلمينَ أنَّ عثمانَ قُتِلَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا نبرحُ حتَّى نناجزَ[1] القومَ».

ودعَا – عليه الصلاة والسلامُ – إلى البيعةِ، وَنادَى مناديه: أن جبريلَ عليهِ السلام قد نزلَ على رسولِ اللهِ ﷺ فأمرَ بالبيعة، فاخْرجوا على اسم الله فبايعوا..

سارعَ المسلمونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ تحتَ الشجرةِ فبايعوهُ على ألا يفرُّوا أبداً وهم في همةٍ وشوقٍ إلى الجهادِ.. فقال لهم رسول الله ﷺ: (أَنْتُمْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ اليومَ).

وما هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى ظهرَ عثمانُ – رضيَ اللهُ عنهُ – فاستبشَرَ المسلمونَ خيراً.

عَلِمَتْ قريشٌ بأمرِ البيعةِ، فأسرعتْ في تهدئةِ الموقفِ فأرسلتْ سهيلَ بنَ عمرو مع نفرٍ من المشركينَ لعقدِ الصُّلحِ معَ المسلمينَ، فلما رآهُ رسولُ اللهِ ﷺ

(١) نناجز: نقاتل ونبارز.

قال: (قد سهّلَ اللهُ أمركم، أرادَ القومُ الصلحَ حينَ بعثوا هذا الرجلَ).

وصلَ سهيلٌ وتكلَّمَ طويلاً ثم اتفقَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ على قواعدِ الصلحِ، وهي:

- أَنْ تتوقفَ الحربُ بينَ الطرفينِ عشرَ سنينَ.
- أَنْ يرجعَ المسلمونَ إلى ديارِهم دونَ طوافٍ على أن يعودُوا في العامِ المقبلِ ليطوفوا بالبيتِ الحرامِ.
- أن يردَّ المسلمونَ من أتاهم مِنْ قريشٍ، وألا يردَّ المشركونَ مَنْ أتاهم مِنَ المسلمينَ.
- من أرادَ أنْ يدخلَ في عهدِ محمدٍ منْ غيرِ المشركينَ دخل فيهِ، ومَنْ أرادَ أن يدخلَ في عهدِ قريشٍ دخلَ فيهِ.

قبلَ النبيُ ﷺ كلَّ هذهِ الشروطِ، أمَّا المسلمونَ فداخلهم منْهَا أثرٌ عظيمٌ، وقالوا: سبحانَ اللهِ، كيفَ نردُّ مَنْ جاءَنا مسلمًا، ولا يردونَ مَنْ جاءَهم مرتدًا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّه مَنْ ذَهَبَ منَّا إليْهم فأبعدهُ اللهُ، ومَنْ جاءَنا منهْم فرددناهُ إليهم فسيجعلُ اللهُ له فرجًا ومَخْرجًا».

ولـمَّا رأى شبابُ قريشٍ الطائشونَ رغبةَ زُعمائهم في الصّلحِ فكَّروا في خطة تَحُولُ بينهُم وبينَ الصّلحِ، فقرّروا أن يَتَسَللوا ليلاً إلى مُعسكرِ

المسلمين، ويبدأوا بالمناوشةِ استعداداً لجرِّ قريشٍ للحربِ، وفعلاً قامُوا بتنفيذِ الخطةِ، إذ خرجَ سبعونَ منهمْ ليلاً فهبطوا مِنْ جبلِ التنعيمِ، وحاولوا التسللَ إلى معسكرِ المسلمينَ؛ إلا أنَّ المرابطينَ في الحراسةِ قاموا باعتقالهم جميعًا، وجاؤوا بهم إلى رسولِ الله ﷺ، وقدْ قامَ بإطلاقِ سراحِهم، وعفَا عَنْهم رغبةً في الصلحِ، وفي ذلك أنزلَ الله تعالى قوله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقبضَ سلمةُ بنُ الأكوعِ على أربعةٍ مِنَ المشركيَن أساؤوا إلى رسول الله ﷺ بعَد إبرامِ الصُّلحِ، فعفَا عنهم الرسولُ ﷺ.

اتفقَ رسولُ الله ﷺ وسهيلُ بنُ عمروٍ على هذه الشروط، وأحبّا أن تكونَ مكتوبةً في صحيفةٍ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه أن يكتبَ الكتابَ، فقالَ لهُ: اكتبْ بسمِ الله الرحمن الرحيم.

عندها قالَ سهيلُ بن عمروٍ:

ـ لا نعرفُ الرحمن الرحيم، اكتبْ باسمكَ اللهمَّ.

قالَ النبيُّ ﷺ: اكتبْ باسمكَ اللّهمَّ، ثم قال لعليٍ: اكتب هذا ما صالحَ عليهِ محمدٌ رسولُ الله ﷺ..

قَال سهيلٌ: لوْ كنا نعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ لصدقناكَ ولم نكذّبْكَ!! ولـمَا صددْناكَ عن البيتِ ولا قاتْلناكَ، ولكنِ اكتبْ محمد بن عبدِ اللهِ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي رسولُ اللهِ وإنْ كذَّبتموني».

عندَها كانَ عليٌّ قد كتبَ (محمدٌ رسولُ الله ﷺ)، فقال له الرسول ﷺ: امْحِهِ.

فاسْتثقلَ عليٌّ ذلكَ، ورفض أن يمحيَهُ رفضًا باتًا، فمحاهُ رسولُ الله ﷺ بيدِهِ، وطلبَ منهُ أنْ يكتبَ كما أرادَ سهيلُ بنُ عمرٍو، وذلكَ رغبةً في الصّلحِ.

استشاطَ المسلمونَ غيظًا من سهيلِ بن عمرٍو وأصحابِهِ، ولم ترقْ لهم هذهِ الشروطُ المجحفةُ، فقامَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ مستفسرًا، فقال: يا رسولَ اللهِ، ألستَ على حقٍ، وَهُمْ على باطلٍ؟

قال: «بلى».

قال عمر: أليسَ قتلانَا في الجنةِ وقتلاهمْ في النارِ؟

قال: «بَلَى».

قال عمرُ: (ففيمَ نُعطِي الدنيّةَ[1] في أنفسِنَا؟).

قال: «يا ابنَ الخطابِ، إنِّي رسولُ اللهِ ولنْ يضيّعَنِي اللهُ».

لمْ يعرفِ المسلمونَ الحكمةَ منْ هذا الصلحِ الذي كانَ وحيًا من اللهِ لنبيه ﷺ، ولمْ يدركُوا الخيرَ العظيمَ الذي كانَ ينتظرهمْ وراءَهُ، حيثُ كانَ فاتحة

(١) الدنية: النقيصة.

انتشارِ الدعوةِ وانتصارِها في الآفاقِ..

وقبلَ أنْ ينهيَ الطرفانِ الصلحَ، أطلَّ عليهم شابٌ يرسفُ[1] بأغلاله فما أن رأى المسلمينَ حتَّى ألْقَى بنفسه بينَهم صائحًا: أشهدُ أنَّ لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، جئتُ مستجيراً بكم أيُّها المسلمونَ، جئتُ مهاجراً إليكمْ، أنقذوني مِنَ المشركينَ.

لمْ يصدِّق سهيلُ بن عمروٍ أن هذا الشابَّ ابنُهُ، لقدْ صاحَ بِهِ: أجننتَ يا أبا جندل؟!! كيف تجرؤ على الخروج من مكة دون إذني؟!!

صاحَ أبو جندل: يا أبَتِ إنَّ محمداً وصحبَهُ أحبُّ إليَّ مما تدعونني إليهِ.

لمْ يستطعْ أبوهُ كظمَ غيظِهِ فقامَ إليه فضربهُ ضَربًا مُبَرِّحًا، ولم يكتفِ بذلكَ بلْ قَطَعَ غُصْنًا من شجرةٍ وصارَ يهوي عليهِ بضرباتٍ موجعةٍ لم تزدْهُ إلا إيمانًا ويقينًا.

ثارتْ مشاعرُ المسلمينَ، وكادَ بعضهُمْ يهجمُ على سهيلٍ لِيَحُوْلَ بينَهُ وبينَ أبي جندلٍ، وفاضتْ عيونُ بعضِهم تأثرًا لما شاهدوهُ في هذا الموقفِ المؤلمِ.

طلبَ رسولُ الله ﷺ من سهيلٍ أن يسمحَ له بأبي جندلٍ، وقال له: «إننا لمْ نقضِ الكتابَ بَعْدُ»، فقالَ سُهيلٍ: هذا أولُ ما أقاضيك عليهِ، وهدَّدَ بفضِ الاتفاقِ إنْ رفضوا إعادةَ أبي جندلٍ لهُ، وتذكَّرَ يومَ بدرٍ عندما انحازَ

---

(١) يرسف: يمشي مقيداً.

ابنُهُ عبدُ اللهِ إلى المسلمينَ فقاتلَ معهم وأبلى بلاءً حسنًا فشمتتْ به قريشٌ، وعزمَ على ألا يتركَ المجالَ لأحدٍ يشمتُ به مرةً أخرى في انحياز أبي جندلٍ للنبيّ ﷺ .

حاولَ عليه الصلاةُ والسلامُ معه مرارًا ولكن دون جدوى، ولما علم أبو جندل بمصيره صاح قائلاً: أيُّها المسلمونَ، أنقذوني منَ المشركينَ ولا تردوني إليهم.. إنهم يريدونَ أن يفتنوني عن دينِ محمدٍ.

اقتربَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه منْ أبي جندلٍ ليحثَّه على التخلصِ مما هُوَ فيهِ، فقالَ له: "اصبرْ أبا جَندلٍ، فإنّما هم المُشركُون، وإنّما دمُ أحدهم كدم كلبٍ يا أبا جندل، إن الرجُلَ ليقتلُ أباهُ في اللهِ، واللهِ لوْ أدْركنا آباءنا لقتلناهُم في الله".

وهكذا أرادَ عمر بنُ الخطابِ أنْ يحرضَ أبا جندلٍ على قتل أبيه حتى يتخلص مما هو فيه!!

لمْ يلتفتْ أبو جندلٍ إلى قولِ عمر ضَنًّا[1] بأبيهِ.. وآثر الصبرَ على الهوان حتى يجعلَ اللهُ له مِنْ أمرِهِ فرجًا ومخرجًا..

لم يتركْ رسول الله ﷺ وأصحابُه وسيلةً في إنقاذ أبي جندل ولكن أباه كان مصرًّا على موقفه عندَ ذلكَ طلبَ رسولُ اللهِ ﷺ من سهيلِ بنِ عمرٍو

(١) ضنًّا: بخلاً.

وأصحابِه أن يحسنوا معاملةَ أبي جندل، وأن يتوقفوا عن تعذيبِه وإهانته، فوافقوا.

قال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا جندل اصبرْ واحتسبْ، فإنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولمنْ معكَ من المستضعفينَ فرجًا ومخرجًا، إنا قدْ عَقَدنا بيننَا وبين القَوْمِ صُلحًا، وأعطَيْناهُم على ذَلِكَ وأعطونَا عهدَ الله أنْ ألاّ نَغدرَ بهم».

ولـمَّا فرغَ رسولُ الله ﷺ من الصُّلحِ أشْهَدَ عَلَيْهِ رِجَالاً منَ المُسلمينَ ورِجَالاً من قريشٍ.

رجع أبو جندلٍ إلى مكةَ في جوارِ مكرز بن حفص وحويطب بعد أن أكدا للنبي ﷺ أنه لن يُعَذَّب بعدَ اليومِ. ذُرفتْ دموعُ المسلمينَ وهم يودعونُه وكانوا يدعون له بالصَّبرِ والثباتِ

لم يفرحِ المُسلمونَ كثيراً بهَذهِ الشُّروطِ، ولم يغبْ عنهم مَشهدُ أبي جَنْدَل الذي لجأ إليهم طالبًا الحمايةَ فردَّه رسول الله ﷺ التزامًا ببنودِ الصُّلحِ.

ولما أمرهُم رسولُ الله ﷺ بنحرِ الهدي والتحللِ من الإحرامِ تلكأوا[1] ولم ينفذوا أمَرهُ لهولِ الموقفِ ودهشته التي طغتْ على عقولهم وأفئدتهم.

عندَها دخلَ النبيُّ ﷺ خيمةَ أمِّ سلمةَ مغضبًا، فشكا إليها إعراضَ المسلمين، فأشارت عليه أن يبدأهم بالتحلل ونحر الهدي، فخرجَ وفعلَ ذلكَ

(١) تلكأوا: تباطأوا.

وهمْ ينظرونَ إليه فسارعوا للاقتداءِ بنبيهم ﷺ.

رجعَ المسلمونَ إلى المدينةِ المنورةِ، وفي طريقِ عودتهم نزلتْ سورةُ الفتحِ، فاستبشرَ المسلمونَ خيراً، وعادتِ الفرحةُ إلى وجوههمِ، ولكنَّ مشهدَ أبي جندل ظلَّ يتراءى لهم.. وصاروا يذكرونَه دائماً ويذكرونَ قوةَ إيمانهِ وعقيدتهِ، ويتخيلونَ أباه سهيلاً وهو ينهالُ عليه ضرباً.

لقد وفَّى المسلمونَ عهدَهم بردّ من يصلهم من قريشٍ، ووفى حويطب ومكرز بن حفصٍ عهدَهُما بأن لا يعذبَ أبو جندل، ولكنَّ المستضعفينَ الآخرينَ الذين مُنِعُوا منَ الهجرةِ كانوا يعذَّبونَ في كلِ وقتٍ، وقد ضاقتْ بأحدِهم مكةُ وقرَر أن يلحقَ برسولِ الله ﷺ، مع علمهِ أنَّ رسولَ الله قد يردُّه إلى مكةَ بناءً على الاتفاقِ المعقودِ بين الطرفينِ.

لمْ ينتظِرْ أَبُو بَصيرٍ كثيراً، فهوَ لم يعُد يحتمِلُ عذابَ المُشركِين.. لقد خافَ على نفسهِ ودينهِ.

ومَنْ أبو بصير هذا؟ إنَّهُ واحدٌ من المؤمنين المستضعفين الذين ظلوا في مكة تحتَ حِراب الكفر والشركِ.

في تِلكَ الأيّام خفّفَ المُشركُونَ مراقَبَتهُم للمُستضعفين من المُؤمنين لعلْمِهِم أنّ محمداً سيرُدُّهم خائبينَ مقهورين.

تخلَّصَ أبو بصيرٍ من قيودِه، وهُرِعَ نحوَ المدينة المنورةِ مهاجراً..

وما أَنْ وصلَ إلى المدينةِ المنورةِ حتَّى فرحَ المسلمون بقدُومه، ولكنَّ فرحَهُم لمْ يدُم طويلاً، فقد أرسلت قُريشٌ رجُلينِ إلى المدينةِ المنورةِ لردِّه حسبَ الاتفاقِ بين الطرفينِ، ووصَلا المدينةَ وطلباه من محمد ﷺ.

ماذا يفعلُ رسولُ الله ﷺ؟

أيقبلُهُ مهاجراً وينقضُ عهدَهُ معَ قُريشٍ، أم يردّه إلى مكّة ليذوقَ من العذابَ أضعافَ ما كانَ يُلاقيه؟!!

لمْ يتردّدْ رسولُ الله ﷺ في ردِّ أبي بصيرٍ مع الرجلين إلى مكة.

وبالرغمِ من توسّلِ أبي بصيرٍ ليبقى معَ المسلمين وشفاعةِ أصحابِ رسول الله ﷺ إلا أن ذلك لم يشفع له فالاتفاقُ عهدٌ بين الطرفين ورسول الله ﷺ أجدر أن يحفظ العهود حتى مع أعدائه!!

وأطاع أبو بصيرٍ نبيَّه ونزلَ عندَ رغبتِهِ مقدراً وفاءَهُ للعهدِ الذي بينَه وبينَ قريشٍ..

وعادَ معهما ودموعُ المسلمينَ تودعه وألسنتُهم تدعو له بالثباتِ والفرجِ.

خرجَ المشركانِ من المدينةِ يصطحبان أسيرهما إلى مكةَ، وما أن وصلوا إلى ذي الحليفةِ[1] حتى شعروا بالحاجةِ إلى الراحةِ، فنزلوا عن خيلهم ليستريحوا

(١) ذو الحليفة: موضع قربَ المدينة يحرم منه المسلمون ويسمى الآن أبيار علي.

تحت ظلِّ شجرةٍ.. سَلَّ أحدُ المُشركيْنَ سيفَهُ وهزَّه وقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوسِ والخزرج يومًا إلى الليلِ، فقال أبو بصير: أوَصارمٌ سيفكَ هذا؟

قالَ: نعمْ. قالَ: ناولنيه أنظُر إليْه!!

وفي غفلة من الرجل ناوله السيف..

ولـمَّا قبضَ أبو بصيرٍ عليه ضربَهُ به بخفةٍ حتَّى هوى على الأرضِ مضرجًا بدمائه

رأى الرجل الآخر ما حل بصاحبه فسارعَ إلى الهربِ مذعورًا نحو المدينةِ.. وصلَها وأبو بصير يتبعُهُ.. دخلَ المسجدَ ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ فيه بينَ أصحابهِ..

رأى عليه السلام الرجلَ مقبلاً وعليه أمارات الفزعِ فقالَ: «لقد رأى هذا ذعرًا».

فأقبلَ المشرك مستغيثًا برسولِ اللهِ ﷺ.. وجاءَ أبو بصيرٍ فسلّم على النبي ﷺ وقال: وَفَتْ ذمّتُك، دفعتني إليهمَا فعَرفتُ أنهم سيعذبوني ويفتنوني عن ديني، فقتلتُ الرّجل، وأفلتَني هذا!

قال عليه الصلاةُ والسلام: «ويل أمه[١] مسعر حرب[٢] لوْ كانَ معهُ رجالٌ».

---

(١) ويل أمه: كلمة ذم، والمراد بها هنا المدح.

(٢) مسعر حرب: مثيرها ومحركها.

قال أبو بصيرٍ: أشرْ عليّ يا رسولَ اللهِ.

قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «هذا شأنكَ في قتلِ صاحبكِ، اذهبْ حيثُ شئتَ، ولا تقعْد في المدينةِ، فإني قد عاهدتُ القومَ على ذلكَ».

خرج أبو بصيرٍ منَ المدينةِ المنورةِ لا يدري أينَ يذهبُ، وما أن ابتعد عن المدينة قليلا حتى رأى من بعيد مجموعة من الرجال يقصدون المدينة المنورة فأوجس منهم خيفة وظنَّ أن المشركين قد أرسلوهم في أثره، فاستلَّ سيفه استعداداً لقتالهم، وما أن اقترب منهم حتى صاح بهم قائلاً: السلام عليكم أيها الركب المهاجر، لقد سلَّم عليهم وعانقهم إنهم أصحابه الذين ذاقوا أشدّ ألوان العذاب من مشركي مكة إنهم خمسةٌ من المهاجرينَ قد فروا بدينهم فاجتمع بهم وأخبرهم بالذي حصل، ونصحهم بعدم الذهاب إلى المدينة وبعد مشاورات اتفقوا أن يذهبُوا إلى "العيص" على ساحل البحر، حيثُ تمرُّ منْ هُناكَ قوافلُ قريْش!!

وصلَ المهاجرون السّتةُ إلى العيصِ وأقامُوا بيتًا هُناك، واتخذوا مسجداً لهمُ يصلون فيه، وكان أبو بصيرٍ إمامَهم، وقد كان يقولُ:

اللهُ ربّي العليُّ الأكبرُ   منْ ينصرِ اللهَ فسوفَ يُنْصرُ

ويقعُ الأمرُ على ما يُقْدَرُ

وصارُوا يدعونَ العربَ الذينَ حولَهم إلى الإسلامِ، فاستجابَ لهْم

عشرات منْ بَني غفَار وأسْلم وجُهينةَ[١] وطوائفَ، من الناسِ.

وشاعَ خبرُهُم في مكةَ والمدينةِ، وصارُوا حديثَ المسلمينَ والكافرينَ، وبلغ المسلمين منهم قولُ رسولِ الله ﷺ في أبي بَصيرٍ: (ويل أمه، مسعرُ حربٍ لو كَانَ معهُ رِجَال) ففهموا قولَهُ ومَا عَنَاهُ.

ولم ينسَ رسولُ الله ﷺ المستضعَفيَن في مكةَ، وكان كثيرَ الدعاءِ لهم، وكانَ إذا صلى العشاءَ يقولُ: «اللهم نَجِّ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهمَّ نَجِّ سلمةَ بنَ هشامٍ، اللهُّم نَجِّ عيّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهمَّ نَجِّ المستضعفَين من المؤمنين..».

وكان عليه السلام يدعو على المشركين في صلاة الفجر بدعاءِ القنوتِ، يخصُّ زعمَاءَهُم باللعن، فنزلت: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. عندها توقف النبي ﷺ عن الدعاء عليهم.

وما هيَ إلا أسابيعُ حتّى انفلتَ أبو جندل بنَ سهيل بن عمرو في سبعينَ من المستضعفينَ بمكة، حيث وضعوا خطة محكمة للهروب إلى العيص.. ونجحت خطتُهُم ووصلوا إلى هدفِهم لينضموا إلى كتيبةِ أبي بصيرٍ.

فرحَ أبُو بصيرٍ ومَنْ معهُ بهذا المددِ، واشتدَّ فرحُهُ بصحبةِ أبي جندلٍ، وعملا معًا على قيادةِ هذه الكوكبةِ المؤمنةِ في الدعوةِ والجهادِ. وأقاموا هناك

(١) غفار وأسلم وجهينة: قبائل عربية.

العديد من البيوت لتأويهم.

كانتْ قوافلُ قريشٍ تمرّ بالقربِ من العيصِ، وكانَ عددُ المسلمينَ في هذهِ الآونةِ قدْ بلَغ ثلاثمائة مقاتلٍ، فصاروا يُهاجِمُونَ القوافلَ التي تخرجُ من قُريشٍ أو ترجعُ إليها.

جُنّ جنونُ زعماءِ قريْشٍ.. ما هذهِ الأخبارُ التي تَرِدُهم من العيص؟!! وما هذا المأزقُ الذي وقعُوا فيهِ؟! لقد توقعوا أن تجلبَ لهُم بنودُ اتفاقِ الحديبيةِ العزةَ والسعادةَ والطمأنينةَ، وليسَ الشقاءَ والعنتَ الذي قذفهُ أبو بصيرٍ وصحبُهُ في وجوههم!!

لقد نَعتُوا تلكَ الكوكبَة بكلّ نعوتِ الإرهابِ والتطرفِ، وتشاوروُا في أمرِهم ليضعُوا حداً لبطشِهم وصولتهِم.. ولكنَّ ذكْرَى غزوةِ بدرٍ كانتْ لا تزالُ تؤرّقهُمْ.. وهؤلاءِ شبانٌ أقوياءُ ذوو بأسٍ شديد لا يخافونَ في اللهِ لومة لائم..

اجتمَع القادةُ يتدارسونَ هذا الأمرَ، وصارَ بعضُهم يلوم بعضًا، وجعلَ الواحدُ منهم يتندرُ برأي سهيلٍ بردٌ من أسلمَ إلى المشركيَن.. وجعل بعضهم يقول: ماذا لو سمحنا لمثل هؤلاء باللحاق بمحمدٍ، ألمْ يكنْ ذلكَ أفضل لنا؟!!

ولكانَ العهدُ مضَى عليهم مع محمدٍ وصحبِهِ..!!، أرسلوا شكواهم إلى رسول الله ﷺ بأمر هذه العُصْبة التي نكدت حياتهم، ولكن ماذا يفعل لهم رسول لله وهم خارج سلطتهِ؟

قــررَ زعــمــاءُ قـريشٍ أن يتنازلوا عن هذا البند في الصلح، ويطلبـوا من محمدٍ أن يقبلَ هؤلاءِ وكل من يأتيه من المشركين مسلمًا..

وقـدِمَ أبو سـفـيـانَ بهـذا العـرضِ إلى المدينةِ، وأخـذَ يناشـدُ النبيَّ ﷺ أن يقبلَ منْ يأتيه مسلمًا وألاّ يردَّهَ..

فـرحَ الرسـولُ ﷺ بهـذا، وعلِـمَ المسلمـونَ عندهَا أن الخـيـرَ كلَّ الخـيـرِ في ذلكَ الصلحِ الذي كانَ وحيًا من الله لنبيه ﷺ.

انصرفَ وفدُ قـريش إلى مكةَ وهـم مـسـتـبـشـرون بحل مـشـكلـتـهـم وزوال همهم الذي أرقهم فترة من الزمن..

لمْ يزلِ الأبطالُ في العيصِ، ولم يصلهـم كـتـاب رسـول الله ﷺ بالقـدوم عليه بعدُ.

مرَّتْ بهـم قافلةٌ لقريشٍ يقودُها أبو العاص بنُ الربيعِ صِهرُ رسول الله ﷺ، فـأخـذوا مـا مـعَـهـم وأسرُوهـم ولمْ يقـتـلوا أحـداً منهـم لمكانةِ أبي العـاص، فـهـو زوجُ زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، وهو ابنُ أختِ خديجَةَ بنتِ خويلدٍ، وكانَ أبو العاصِ يومَها مشركًا، فخلّوا سبيلَهُ فقدِمَ المدينةَ وتوجَّهَ إلى زينبَ رضي الله عنها وكانت عند أبيها، وذلك بعد أن فرق بينهما الإسلام.

كلَّمـهـا أبو العاص في أصحابِه الأسرى لدى أبي بصير، فكلمتْ رسولَ الله ﷺ في ذلك، فـقـام فـخطب الناس فـقـال: «إنّا صـاهـرنَا ناسًـا، وصاهرْنا

أبا العـاص، فنعَم الصِّـهـرُ وجـدَناهُ، وإنَّه أقبلَ من الشامِ في أصحـابٍ له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير فأسروهم، وأخذوا ما كان معهم، ولم يقتلوا منهم أحداً، وإنَّ زينبَ بنتَ رسولِ الله ﷺ سألتني أنْ أجيرَهُم، فهلْ أنتمْ مجيرونَ أبا العاصِ وأصحابَهُ؟!»، فقالَ الناسُ: نَعَمْ.

فلمَّا بلغَ أبا جندلٍ وأصحابه قولُ رسول الله ﷺ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده من الأسرى ردّوا إليهم كل شيء أُخِذَ مِنْهم حتَّى العقال.

وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أبي جندلٍ وأبي بصيرٍ يأمرُهمْ أَنْ يَقدموا عليه بمنْ مَعَهم، ومنْ شاءَ من أصحابِهم أن يرجعَ إلى بلادِه وأهله فليرجعْ.

وصلَ الكتابُ إلى أبي جندلٍ، وكانَ أبو بصيرٍ قد مرضَ واشتَّد به المرضُ وما هي إلا لحظاتٌ حتَّى خرجت الروُح إلى بارِئها، وكتابُ رسول الله في يد أبي جندل يقرؤه..

حزنَ أبو جندلٍ وأصحابُهُ علَى أَبِي بصيرٍ الذي فتَح لهْم ثغرةً للجهادِ والتحرر من أسرِ الكفارِ، وقاموا بتغسيلهِ وتكفينِه والصلاة عليه ودفنِه في مكانِه..

قدمَ أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعهُ أكثَر أصحابِه..

فرَح النبيُّ ﷺ بمقدمِهم عليه، وفرَح المسلمونَ، وتذكروا أبا بصيرٍ،

وسألوا عنهُ، فبلغهم الخبرُ المحزنُ، فَدَمعتِ العيونُ تأثرًا لما حل بهذا البطل الصنديد . .

شهدَ أبو جندلٍ ما أدركَ من المشاهدِ، وشهدَ فَتْحَ مكةَ، وشاهد أباهُ سهيلاً وهو يقول للنبي صلى الله عليهِ وسلم: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، بعد ما سمعه يعلن العفو العام ويقول لقريش: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

رآهُ عمرُ بنُ الخطابِ فأسرَع إلى النبيِّ ﷺ وقالَ لَهُ: لَقَدْ رأيتُ سهيلَ بنَ عمروٍ! فقالَ له النبيُّ ﷺ: «وماذا أفعلُ به؟» قالَ عمرُ: لقد كان يخطبُ الناسَ في مكة ويُثيرُ العَداوةَ لنَا. دعْني أنْزِعُ ثنِيّتيهِ[1] فلا يقومُ علينا خَطيبًا.

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: «دَعْهَا فَلعَلّهَا تَسرُّك. . لا أمثِّلُ بهِ فيمثل الله بِيَ ولوْ كنتُ نبيًا».

وصدقَ رسولُ الله ﷺ، وأسلَمَ سهيلُ بنُ عمروٍ وحَسُنَ إسلامُه، ولقدْ جاءَ اليومُ الذي سُرَّ بهِ عمر والمسلمون.

فعندما توفيَ النبيُّ ﷺ ولحقَ بالرفيقِ الأعلى أرادَ أهلُ مكةَ الردة عن الإسلام فوقفَ سهيلٌ خطيبًا فيهم، وقال: "منْ كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ، وَمَنْ كانَ يعبدُ اللّهَ فإن اللّهَ حيٌّ لا يموت. . ".

(١) الثنية من الأضراس: واحدة من الأربع التي في مقدم الفم منهم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.

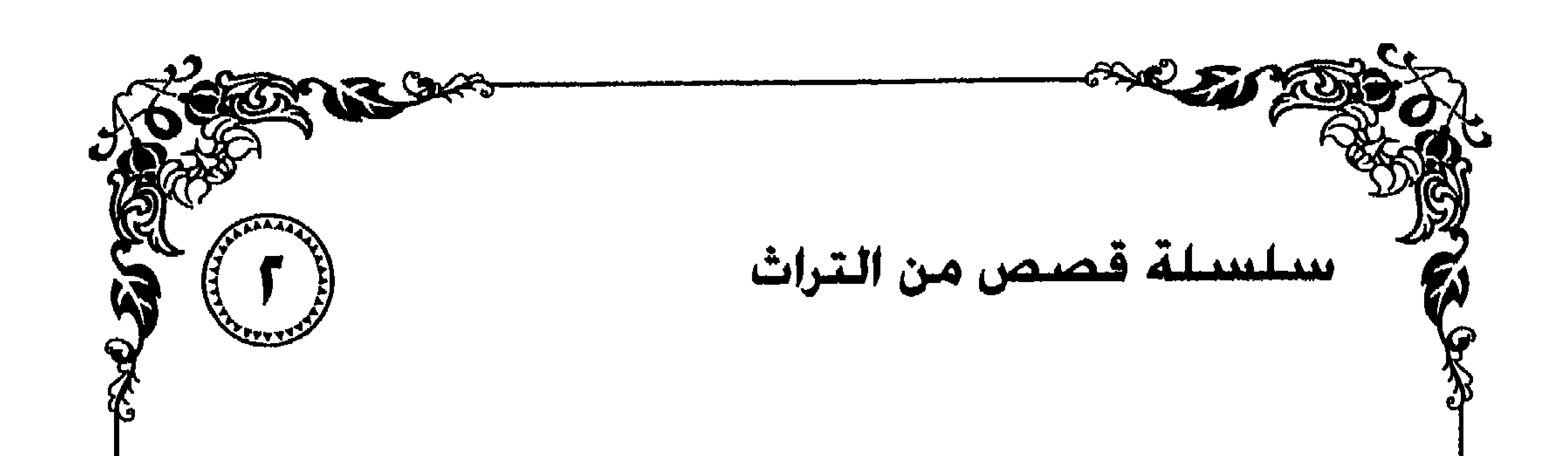
وكان لهذه الخطبة أثرٌ واضح في ثباتِ أهلِ مكة على الإسلام.

وقد عاهدَ اللهَ أن يجعلَ من نفسهِ مدافعًا ومناصرًا للإسلامِ وأهلِه، وأنْ يقف معهم ليكَفّرَ عن مواقفهِ في الجاهلية فقال: "والله لا أدعُ موقفًا وقفتُهُ معَ المشركينَ إلا وقفتُ مع المُسلمينَ مثلهُ، ولا نَفَقَةً أنفقتها معَ المُشركينَ إلا أنفقتُ على المُسلمين مثلها.."

وسارَ مَعَ مواكبِ المجاهدينَ في معركةِ اليرموكِ واستشهَد هناكَ رضيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاهُ.

المصادر والمراجع

- السيرة النبوية لابن هشام.
- الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري، دار السلام، الرياض.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- صحيح البخاري وفتح الباري، كتاب الشروط، باب ١٥ .
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد محمد أبو شهبة، دار القلم – دمشق.
- السيرة الحلبية.
- فقه السيرة، محمد رمضان البوطي.
- دلائل النبوة للبيهقي.
- نور اليقين، محمد الخضري.
- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي أحمد، الرياض ١٤١٢هـ.



سلسلة قصص من التراث ٢

عمر رضي الله عنه في القدس

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

عمر رضي الله عنه في القدس.- الرياض.

٢١ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ١ - ٩٨٨ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص الإسلامية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٣١٨,٠١٨٨ ٢٢/١٥٤٦

ردمك: ١- ٩٨٨ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٦

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

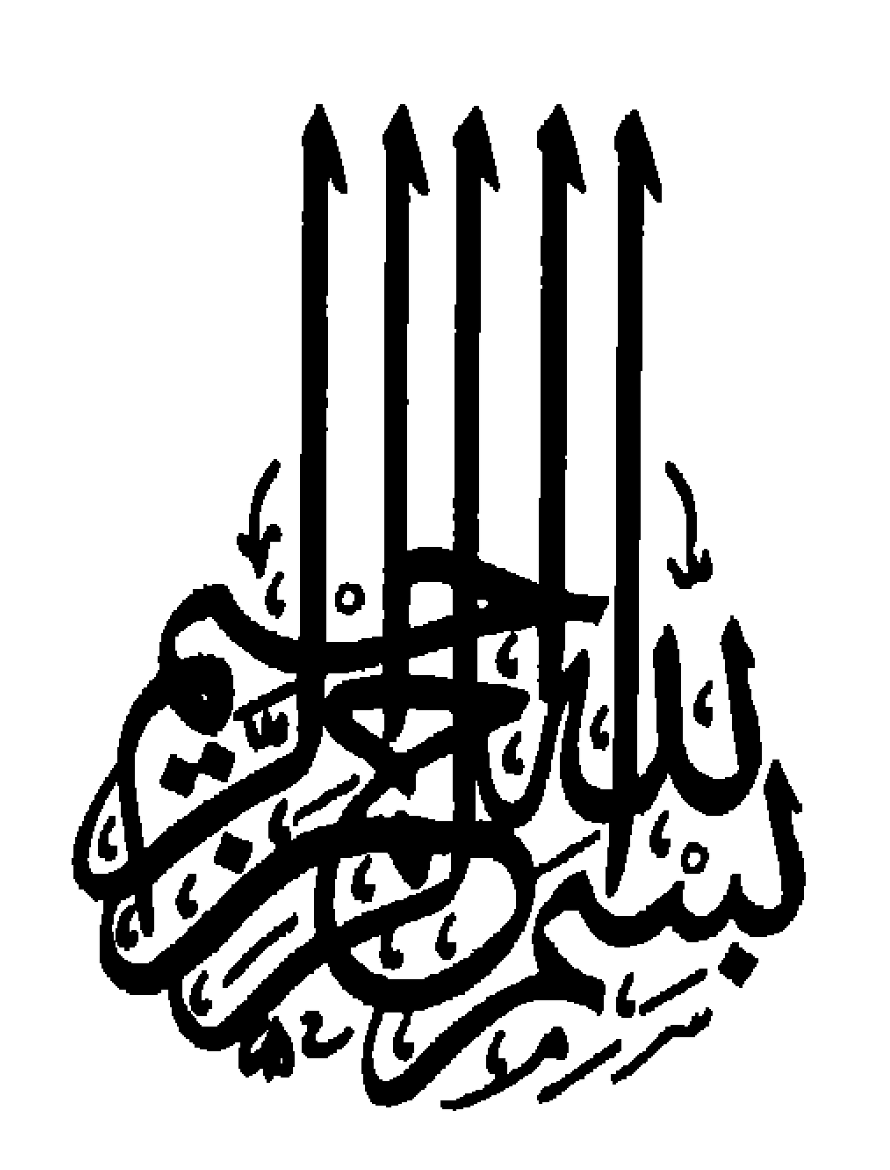
الناشــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



سيَّر أَبُو عبيدةَ إلى بيتِ المقدسِ سبعةَ جيوشٍ، وجَعل على كُلِّ جيشٍ قائداً ضمَّ إليهِ خمسةَ آلافِ فارسٍ، وعقد لكلِّ قائدٍ رايةً.

سارَ الأمراءُ السبعةُ أميراً بعد أميرٍ، ففي اليومِ الأوّلِ انطلقَ خالدُ بنُ الوليد بجنودِه، فلما صارَ قريباً من أسوارِ القدسِ كبّر وكبَّر أصحابُه، فلما سمعَ أهلُ بيتِ المقدسِ هذا الهديرَ المدوي في عنانِ السماءِ خرجوا على أسوارِ المدينة ففزِعُوا وتزعزعت قلوبُهم، ولما تأكدوا مِنْ عددِ الجيشِ اطمأنتْ قلوبُهم قليلاً وظنُوا أنَّ هذا الجيشَ هوَ جيش المسلمين كلُّه، فاستعدوا لتحصينِ مدينتهمْ، ولكنَّ فرحتهمْ لم تدمْ إلا قليلاً ففي اليومِ الثاني أقبلَ يزيدُ بنُ أبي سفيانَ مكبِّراً مهللاً، وفي اليوم الثالث وصلَ شرحبيلُ بنُ حسنةَ بجيشِه، وهكذا حتى انقضى اليومُ السابعُ فاجتمعَ خمسةٌ وثلاثونَ ألف مجاهدٍ منَ المسلمين.

لم يكنْ بمقدرة أهلِ القدسِ مقاومةُ هذا الجيشِ العرمرم(١)، وانْتَظرَ خالدُ ابنُ الوليدِ أنْ يأتيهُ رسولٌ من القدسِ للتفاوضِ، ومضى يومٌ ويومٌ، والمسلمونَ يحاصرونَ القدسَ ومضى اليومُ الثالثُ وكأنَّ أهل القدسِ لا يعنيهمْ هذا الجيشُ الذي يحاصرُ مدينتهمْ.

وفي اليومِ الرابع صاحَ أحدُ جنودِ المسلمينَ: ما بالُ القوم؟ هلْ هم صُمٌ

(١) جيش عرمرم: جيش كبير.

فلا يسمعونَ أَمْ بكمٌ فلا ينطقونَ، أَمْ عميٌ فلا يبصرونَ، أيُّها القادةُ لِمَ لا نزحفُ عليهمْ؟

فلما كان اليومُ الخامسُ صلى المسلمون صلاةَ الفجرِ، وحملَ يزيدُ بنُ أبي سفيانَ سيفهُ وأخذَ يتسللُ إلى الأسوارِ وصار يقتربُ من أحدِ الأبوابِ شيئًا فشيئًا فلما رأى جمعًا من الناسِ على السورِ صرخَ بأعلى صوتِه: أيُّها الناسُ ماذا تقولونَ في إجابة الدعوةِ إلى الإسلامِ، والحق، وقولِ لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ حتَّى يغفرَ اللهُ لكمْ ذنوبكم، وتحقنُونَ بِهَا دِمَاءَكمْ، فإنْ أبيتمْ ولَمْ تجيبونا فما رأيكمْ بالصُّلحِ عنْ بلدكمْ كمَا صالَحَ غيرُكمْ ممنْ هُوَ أشَدُّ منكمْ قوةً وأمنع حصونًا. وإنْ أبيتمْ هاتين الحالتينِ فما بينَنا وبينَكم إلا الحربُ.

فردَّ عليه رجلٌ منهم فقال له يزيدُ:

ـ مَنْ أنتَ؟

أنا صفرانيوس بطرك(١) من بطاركة القدس

ـ ماذا تقولُ فيما سمعتَهُ؟

ـ لا لنْ نرجعَ عنْ دِيننا، وإنَّ قَتْلَنَا أهونُ علينا منْ ذلكَ.

---

(١) البطرك: رئيس رؤوساء الأساقفة على طائفة معينة من النصارى.

- هَلْ هذا جوابُكَ أمْ جوابُ قومِكَ.

- بلْ هُوَ جوابي وجوابُ القومِ.

- انتظرني غداً حتَّى اجْتمع معَ القادةِ لنتشاورَفي الأمرِ.

مَشى يزيدُ إلى الأمراءِ وأخبرهمْ بما سمعَهُ. فقالوا: إنَّ أبَا عبيدةَ لم يأمرْنَا بقتالِهم وسنكتبُ لَهُ في هذا الأمرِ لنطَّلعَ على رأيه.

كتب يزيدُ بنُ أبي سفيانَ إلى أبي عبيدةَ يخبرهُ بما كانَ منْ جوابِ القومِ، فكتبَ لهمْ أبو عبيدة بأمرِ الزحفِ وأنَّهُ سيلحقُ بهمْ بعد أيامٍ.

وصلَ كتابُ أبي عبيدةَ إلى المسلمينَ ففرحُوا واسْتبشرُوا وباتُوا ينتظرونَ الصباحَ بفارغِ الصبر.

أحَبَّ كلُّ أميرٍ أنْ يكونَ أولَ منْ يدخلُ القدسَ ليصليَ هناكَ وباتَ المسلمونَ وكلٌّ يتمنَى أن يبزغَ الفجر سَريعًا، ها قد اقتربَ الفجرُ وأذنَ المؤذنُ للصلاةِ قاموُا وتوضأوُا وصلُّوا خلفَ القائدِ يزيدَ الذي قرأ قوله تعالى:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

فلمَّا فَرغُوا من الصلاةِ نادُوا: الجهاد الجهاد، يا خيلَ اللهِ اركبي، وياريحَ الجنةِ أقبليَ..

انطلقَ المسلمونَ رجالاً(١) وفرسانًا يسلُّونَ سيوفهم ويمتشقون نبالهم إلى أسوارِ القدسِ المنيعةِ أخذَ النصارى يرشقونَ المسلمين بالنبالِ فكانتْ كالجرادِ يتلقونَها بدروعهمْ وكان المسلمونَ يرمونهمْ كذلكَ ولم يظهروا إلا الشجاعة والإقدام وانطلق التكبير يجلجل(٢) في كل مكان وناحية حتى أفزع الصليبيينَ. وظلوا على هذهِ الحالِ حتى غَربتِ الشَّمْسُ فرجعَ المسلمونَ وصلَّوا ما فرضَ اللهُ عليهمْ وأخذوا في تنظيمِ صفوفهمْ وإصلاحِ شأنهمْ فلمَّا فَرغوُا منْ ذلكِ أَوقدوا النيرانَ العظيمةَ، فلما كانَ الغدُ انطلقوا إلى أسوارهِمْ وهمْ يذكرونَ الله مكبرينَ ومهللينَ، وتقَّدمَ رماةُ النبلِ يرمُون نبالهمْ القويةَ، ولمْ يكلُّوا أو يملُّوا حتَّى كانَ اليومُ الحادي عشر من الحصار إذ أشرقتْ عليهمْ رايةُ أبي عبيدةَ ومنْ ورائِها فرسانُ المسلمين فضجَّ المكانُ بالتهليلِ والتكبيرِ فوقعَ الرعبُ في قلوبِ أهلِ المقدسِ، عندئذٍ أدركوا قوةَ المسلمين وأنهُ لا طاقةَ لهمْ بهمْ فصاحَ رجلٌ منْ أعلى السورِ: أيُّها المسلمونَ كُفُّوا عنَ القتالِ، نريدُ أن نفاوضَكمْ نريدُ أنْ نَرى هذا الأميرَ القادمَ فإنْ كانتْ صفتُهُ كما هِيَ في كتبنِا فَلاَ نقاتلُكم بلْ نصالحكم وإنْ لمْ يكنْ إياهُ فلا نستسلم إليكمْ أبداً.

فلما سمعَ المسلمونَ ذلكَ فرحوا وأسرعُوايزفون البشرى لأبي عبيدة.

خرج أبو عبيدةَ إليهمْ حتى صارَ قريبًا منهمْ. نَظَرَ إليهِ صُفْرانيوس وقالَ:

---

(١) رجالاً: مشاةً.

(٢) الجلجلة: شدة الصوت.

لا لَيْسَ هذا هُوَ الرجلُ، يا معشر النصارى قاتِلوا ولا تستسلموا أبداً، ولم يزدْ عنْ ذلكَ شيئًا.

عَادَ النصارى يقاتلونَ ويرمونَ نبالَهم، واستمروا على هذه الحالة مدة طويلة وكانَ ذلَك في الشتاءِ فظنُوا أنَّ العربَ سينسحبونَ خشيةَ البردِ، إذْ لا خبرةَ عندَهمْ بالحروب في الشتاءِ.

حاصَرَ أبو عبيدةَ القدسَ أربعةَ أشهرٍ كاملةٍ وكلَّ يومٍ يقاتلهمْ قتالاً شديداً والمسلمونَ صابرونَ على البردِ والثلجِ والمطرِ، ولما أزمعَ الشتاءُ على الرحيلِ رأى أهلُ المقدسِ شدة المسلمين وصبرهم فقصدوا صفرانيوس وشرحُوا له ما آلتْ إليهِ حالُهم، وطلبوُا منهُ أنْ يصالحَ المسلمينَ ويَرى ما يريدونَ.

صعدَ صفرانيوس السورَ وأشرفَ على المكانِ الذي فيهِ قادة الجيوش فنادى رجلٌ منهم: يا معشرَ المسلمينَ إنَّ عُمدة دينِ النصرانيةِ وصاحب شِرْعَتها قدْ أقبلَ يخاطبكمْ فلْيدنُ منا أميرُكم. سَمِعَ أبو عبيدةَ مقالَهمْ فقال: واللهِ إني لأجيبُهُ حيثُ دعاني ثمَّ قامَ مع جماعة منَ الصحابةِ والأمراءِ وسارُوا باتجاهِ إحدى البوابات

خرجَ صفرانيوس معَ جماعةٍ منْ رجالهِ وتقدمَ منْ أبي عبيدةَ فحدَّقَ فيه مليًا ثمَّ قال:

ما الذي تريدونَهُ منَّا؟ إنَّ هذهِ البلدةَ مقدسةٌ، إنَّ منْ قصدَها يوشك أن يغضبَ اللهُ عليهِ ويهلكهُ.

– نعم إنها بلدةٌ مقدسة وشريفةٌ ومنها أُسريَ بنبينا إلى السماءِ، فنحنُ أحقُ بها منكم.

– فما الذي تريدونَه هنا.

– خصلةٌ منْ ثلاثٍ

– ما هي؟

– أوَّلها أنْ تدخلوا في دين اللهِ، فإنْ دخلتمْ كانَ لكم مالَنا وعليكُمْ ما عَلَينَا

– نحنُ نؤمنُ باللهِ ونحنُ اتباعُ عيسى نبينا العظيم.

– نحن نؤمن بعيسى بنِ مريمَ، عليه السلامُ فلو كَان معكمْ لاتَّبعَ محمداً عليه السلام.

– نحن نحترمُ دينكم وهذهِ الخصلةُ لا نجيبكم إليها، فما الثانيةُ.

– تصالحوَننا عن بلدكمْ، أو تؤدون الجزية إلينا كما أدَّاها غيرُكم في أهلِ الشَّامِ.

- هذهِ الخصلةُ أعظمُ من الأولى فلن نرضاها.

- إذن نُقاتلكمْ حتَّى يظفرَ اللهُ بكمْ.

ظل أبو عبيدةَ يحاورُ صفرانيوسَ مدةً يحاولَ فيها أنْ ينهي الحرب بصلحٍ مع النصارى وفجأةً ذُهِلَ مما سمِعَهُ.

قال صفرانيوس: إننا نجدُ في كتبنا أنَّهُ يفتحُ هذهِ البلدةَ صاحبُ محمدٍ.

- أنا صاحبُ محمدٍ

- لا لستَ أنتَ بالذي يفتحها، الفاتحُ اسْمُهُ عمرُ ويعرفُ بالفاروقِ وَهو رجلٌ شديدٌ لا تأخذهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ، ولَسْنا نَرى صفتهُ فيكم.

عندها تبسمَ أبو عبيدة ضَاحكًا وقالَ:

إذا رأيتَ الرجلَ تعرفهُ.

- نَعمْ وكيفَ لا أعرفهُ، فصفتهُ كَذا وكَذا، وعُمرهُ خمسةٌ وخمسونَ عامًا!!

- هُوَ واللهِ خليفتُنا وصَاحبُ نبيِّنَا محمدٍ.

- إنْ كانَ الأمرُ كذلكَ فقدْ عَلِمْتَ صدقَنا، فاحقنِ الدماءَ وابْعثَ إلى

صاحبكَ أَنْ يأتيَ فإذا رأيناهُ وعرفنا صفاتِهِ فتحنَا لهُ البلدَ منْ غيرِ همٍّ ونكدٍ وأعطيناهُ الجزيةَ.

- ولكن أينَ عمرُ الآنَ، إنَّهُ في المدينةِ المنورةِ، وأنتَ تعرفُ كَمْ هيَ بعيدةٌ.

- أعرفُ ذَلكِ، ولكنْ هَذا شرطُنَا.

أمَّر أبو عبيدة المسلمينَ بالكفِّ عنْ قتالِ أهلِ القدسِ وكتبَ إلى عمرَ كتابًا قالَ فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، إلى عبدِ الله أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ، مِنْ عَاملِهِ أبي عبيدةَ عامرِ بنِ الجراحِ أمَّا بَعْدُ:

السلامُ عليكَ، فإني أحمدُ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هُوَ وأصلِّي على نبيهِ محمدٍ ﷺ، واعلمْ يا أميرَ المؤمنين إنا منازلون لأهلِ مدينة إيلياء[1] نقاتلهم أربعةَ أشهر، كلّ يومٍ نقاتلهمْ ويقاتلوننا، وقدْ لقي المسلمونَ مشقةً عظيمةً منَ الثلج والبرد والأمطارِ إلا أنهمْ صابرونَ على ذلكَ ويرجونَ اللهَ ربَّهُم. فلما كانَ اليومُ الذي كتبتُ إليكَ الكتابَ فيهِ، أشرفَ علينا بَطْرِكُهمْ الذي يعظمونَهُ وقالَ إنَّهمْ يَجدونَ في كتبهمْ أنَّهُ لا يفتحُ بلدَهَمْ إلاَّ صاحبُ نبينا واسمه عمرُ وأنَّهُ يعرفُ صفتهُ ونعتهُ وَهوَ عندهمْ في كتبهمْ وقدْ سألنا حقنَ

(١) إيلياء: الاسم القديم للقدس.

الدماءِ، فسِرْ إلينا بنفسِكَ وانجدْنا لعلَّ اللهَ أن يفتحَ هذهِ البلدةَ علينا على يديكَ»

ثمَّ طوى الكتابَ وختمهُ وأرسلَهُ إلى عمَر بنِ الخطابِ.

وَصَلَ الكتاب إلى عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقرأه فعزمَ الرحيلَ إلى القدسِ.

طلبَ منْ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يتولى أمورَ المسلمينَ في غيابهِ لكنَّ عليًا فوجئ بما سيقوم به عمر فَحَاولَ أنْ يثني الخليفةَ عن عَزْمِهِ فقالَ لهُ: كيفَ تخرجُ بنفسكَ؟ إنكَ ترحلُ إلى عدوٍ قويٍ.

فقالَ عمرُ: وَمالي ولأَعْدائي، وما عليَّ أنْ أشاركَ إِخْواني الجهادَ في سبيلِ اللهِ، وحاولَ كبارُ الصحابةِ ثنيه لكنَّ عمرَ أصرَّ على الذهابِ إلى القدسِ. أَمَرَ خَادِمَهُ بإعدادِ الراحلةِ التي ستقلُّهم إلى هناكَ، وأبلغَهُ أنْ يكونَ مستعداً للسفرِ معَهُ بعدَ صلاةِ فجرِ هذهِ الليلة إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

أمَّ عمرُ بنُ الخطابِ المسلمينَ في مسجد رسولِ اللهِ ﷺ ولما انتهىَ من الصلاةِ أَوْصَى عَليًا بالمسلمينَ خيرًا، وخرج على بعير له أحمر وعليه غِرارتان(١) في إحداهما سَوِيقٌ(٢) وفي الأُخرى تمرٌ وبين يديه قربةٌ مملوءةٌ ماء

(١) الغِرَارةُ: كيس من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب.

(٢) السَّوِيقُ: طعام يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

وخلفه[1] جَفْنَةٌ للزاد، وخرج معه جماعة من الصحابة يشيعونه ما شين ولمّا سَارُوا مسافةً طويلةً طَلَبَ منهم أنْ يَعودوا فدعوا لَهُ بالتوفيقِ والخيرِ قائلين:

«نستودعُ اللهَ لكَ خواتيمَ أعمالِك»، ورجعوا إلى بيوتهم.

سارَ الموكبُ المهيبُ نحو الشامِ، وأخذتْ مدينةُ رسولِ اللهِ ﷺ تبتعدُ شيئًا فشيئًا عن أنظارِ عمرَ وخادمِهِ، ولكنَّ قلبيهما ظلا معلقين بِها.

أشرقت الشمسُ وَبدتِ الجبالُ والهضابُ شامخة كشموخ إيمانِ عمرَ تتخللها الأشعةُ الذهبيةُ، وبدتْ رمالُ الصحراءِ تتلألأ كالذهبِ وفاحتْ روائح الخزامى تملأ الجو عطراً، عند ذلك أحسَّ عمرُ بالتعب فامتطىَ البعير، فأخذ الخادمُ بلجامِها يمشي أمامَهُ، وما هيَ إلا لحظات حتى أمرَ عمرُ غلامَهُ بالوقوفِ، فترجَّلَ عن بعيره، وأمر غُلامَهُ أنْ يمتطيها، دهشَ الغلامُ منْ طلبِ عمرَ، ورفضَ أنْ يركبَ، إلاَّ أنْ خليفةَ المسلمينِ أصرَّ علىَ ذلكَ، فنزلَ الغلامُ عند رغبتهِ، وركب البعيرَ مُكرهًا، فتقدمَ عُمر وأمسك بلجامِها وسار أمامَ الدابةِ والغلامُ يمتطيها، وأخذ يتلو سورة يس ﴿ **يسٓ** ﴿١﴾ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴿٢﴾ **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٣﴾ **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...** ﴾ انْطلقتِ الآياتُ الكريمةُ تصدحُ في السماءِ، معلنةً بلوغَ المسلمين حضارةً لم تبلغها أمةٌ قبلهمْ، ومُعْلنةً العدلَ والمساواةَ والتواضعَ في بلاد المسلمينَ.

---

(١) الجَفْنَةُ: وعاء يوضع به الطعام.

وما إن فرغَ عمرُ من قراءة السورةِ بقوله: ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ حتى وقفَ واستدار إلى الغلامِ وأمرهُ أنْ يترجلَ عن الدابةِ.

استجابَ الغلامُ لأمرِ عمرَ وكْم تمنَّى لو أنَّهُ أُمِرَ بالترجل قبلَ ذلكَ، فهوَ لا يصدقُ نفسَهُ يركبُ الدابةَ، وعمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقوده!!

أسرعَ الغلامُ وأخَذ لجامَ الدابةِ منهُ، وظنَّ أنَّ عَمر سيمطتي الدابةَ لكنَّ ظنَّهُ خابَ، فقد أمرهُ أنْ يمشي حذاءهَ[1] ويتركَ الدابةَ تمشي وحدَهَا، ثمَّ أمَرَ بتلاوةِ سورةِ يس...

أخذَ الغلامُ يتلوُ السورةَ فتلاها كلَّها، ولما انتهى منها، قال عمرُ الآن جاءَ دوري في الركوبِ، فامتطىَ الدابةَ وأخذَ يقرأُ السورةَ الَّتي لمْ تفارقْهُمْ مدةَ الرحلةِ الطويلةِ.

وهكذا ظلَّ عمرُ وخادمُهُ يتناوبانِ ركوبَ الدابةِ، مرةً لعمرَ، ومرةً للخادمِ ومرةً تمشي خلفهما، وكانَا كلَّما شعر بالإرهاقِ والتعبِ يستريحان ويتناولانِ طَعامَهُمَا اليسيرَ المكوَّنَ منْ تمرٍ وسويقٍ وماءٍ، والدابةُ ترعى هُنَا وهُنَاك بينَ أعشابِ الصحراءِ.

(1) حذاءه: جانبه.

مرتْ أيامٌ عديدةٌ، والموكبُ في طريقهِ إلى القدسِ، وعمرُ مازالَ في عَدْلِه يركبُ حينًا وينزل حينًا وهكذا.

عَلمَ أبو عبيدة بوصول الموكب المهيب إلى أطراف بيت المقدس فخرج لملاقاته مع بعض أصحابهِ.

ها هو الموكب يقترب. لم يستطعْ أبو عبيدة أن ينتظر كثيرًا، فامتطى بعيرهُ قاصداً خليفة المسلمين وتبعه أصحابه، وما أن اقتربا حتى أناخَ عمرُ بعيرهُ وترجَّل(١) كلاهما ومَدَّ أبو عبيدة يده فصافح عمرَ وتعانقا وأقبلَ المسلمونَ يسلمونَ على عمرَ، ويسألونه عن حاله وعن حال المسلمين ويسألهم هو كذلك.

ولما همَّ عمرُ بالركوبِ والسيرِ تجاه القدسِ وجَدَ المسلمونَ ثوبَهُ مرقعًا وبعيرهُ هزيلاً، فقالوا له: لَوْ ركبتَ بدلَ بعيركَ جواداً، ولبستَ ثيابًا بيضاء، فاستحسنَ الرأيَ، فدفعوا إليهِ خيلاً أشهبَ منْ أجودِ الخيول، ولَبسَ ثوبًا أبيضَ جميلاً، فلما صارَ على ظهر الخيل، وسار به قليلاً أحس شيئًا ما، عندها نزلَ عَنْهُ غَضبًا ثم صاح: هاتُوا برُدْتي وبعيريْ؛ فقدْ كدتُ أهلكَ بما دخل في قلبي منَ العُجْبِ والكبرِ، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كان في قلبهِ مثقالُ ذرةٍ منْ الكِبَرِ» وعادَ إلى ما كانَ عليه منْ

---

(١) ترجل: نزل عن دابته.

لبسٍ ومركبٍ، ثمَّ سَارَ في طريقهِ إلى القدسِ، وتبعَهُ المسلمونَ وهم مشدهون مما فعله.

عَلِمَ المسلمونَ والنصارى بأنَّ موكبَ الخليفةِ في طريقهِ إلى القدسِ، فخرجُوا إلى جبلِ الطورِ القريبِ منَ القدسِ لاستقبالِ الخليفةِ.

وأخيراً بَدَتِ القدسُ لعمرَ بنِ الخطابِ بأسوارِها وكنائسِها، وجبالِها فحمدَ اللهَ تعالىَ، ورأى القومَ على سفحِ جبلِ الطورِ فعلمَ أنَّ الناسَ في انتظارِهِ.

سارَ نحوَ القومِ، هَا هُوَ يقتربُ منهمْ، سارَعَ بعضُ النصارىَ إلى الموكبِ يرحبُ بالراكبِ على الدابةِ قائلينَ لَهُ: أهلاً بكَ يا بنَ الخطابِ...

لم يْصدقُوا ما سمعُوا:

أَنَا لستُ عُمرَ، أَنا خادمُ عمرَ، إنَّ عُمرَ هذا الرجلُ الذي يمسكُ بالحبلِ، إنهُ الرجلُ الذي يقودُ الدابةَ..

دَهِشَ الناسُ هَلْ يعقلُ أنْ يركبَ خادمُ عمرَ الدابةَ ويقودَها أميرُ المؤمنين بنفسِهِ!!.

لم يْستغربِ الرهبانُ والبطارقةُ ولا صفرانيوسُ الذيْ كانَ ينتظرُ عُمَرَ بنَ

الخطابِ، فَهُمْ يعرفونَ صفاتِ الخليفةِ العادلِ، فقد عرفوه عندمَا نَظرُوا إلى ثوبِ الذي يقودُ الدابةَ فأيقنوا أنه خليفةَ المسلمين، لقد رأوَا فيه أربعَ عشرَةَ رقعةً، فتركوا العوامَ في دهشتهمْ وقامُوا إلى عمرَ يرحبونَ به، وبكى صفوانيوس وقالَ: إن دولتكم باقية على الدهرِ، فدولة الظلمِ ساعةٌ ودولةُ العدلِ إلى قيام الساعةِ.

سارَ عُمر مع صفوانيوس وأساقفةِ النصارى ودخلُوا إحدى كنائسِ القدسِ، جلسَ عمرُ في الكنيسةِ فنظرَ أحدُ الرهبانِ إلى ظهرِه فوجدَ رقعةً في ثوبه قد اتسعتْ فطلبَ منهُ أن يأخذَ البردةَ ليخيط لهُ الرقعةَ.

استجابَ عمرُ لطلبِه. وخلعَ بردتَهُ ودفعها إليه فأخذها وخرجَ فرحًا ثمَّ لبَسها وهو لا يصدق أنه يرتدي بردة الخليفة. وبعد قليل أحضَر له بردةً جديدةً من القماشِ الجيدِ، فرفضها عمرُ وطلبَ بردتهُ فخلعها الراهب وردَّها لعمر وهو لا يصدق عينيه!!

أيفضل بردته المرقعة البالية على هذه البردة الجديدة؟

أخذ الراهب بردته الجديدة وهو يفكر في أمر هذا الرجل العظيم.

تقدمَ صفرانيوس منْ عمرَ بن الخطابِ وتشاوروا في أمر الصلح وبعدَ أن اتفقا على شروطِهِ أحبَّا أن يكونَ مكتوبًا فكتباهُ وهُوَ:

هذَا ما أعطى عبدُالله أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء منَ الأمانِ. أعطاهُم أمانًا لأنفسهم وأموالهمْ، ولكنائسهم وصلبانهمْ وسقيمها وبريئها وسائرِ ملتها أنَّهُ لا تُسكنُ كنائسهمْ ولا تهدمُ. ولا ينتقصُ منها ولا منْ حيزها ولا منْ صلبهم ولا منْ شيءٍ منْ أموالهمْ، ولا يُكرهونَ على دينهمْ، ولا يضارُّ أحدٌ منهمْ، ولايسكنُ بإيلياءَ معهمْ أحدٌ منَ اليهودِ...».

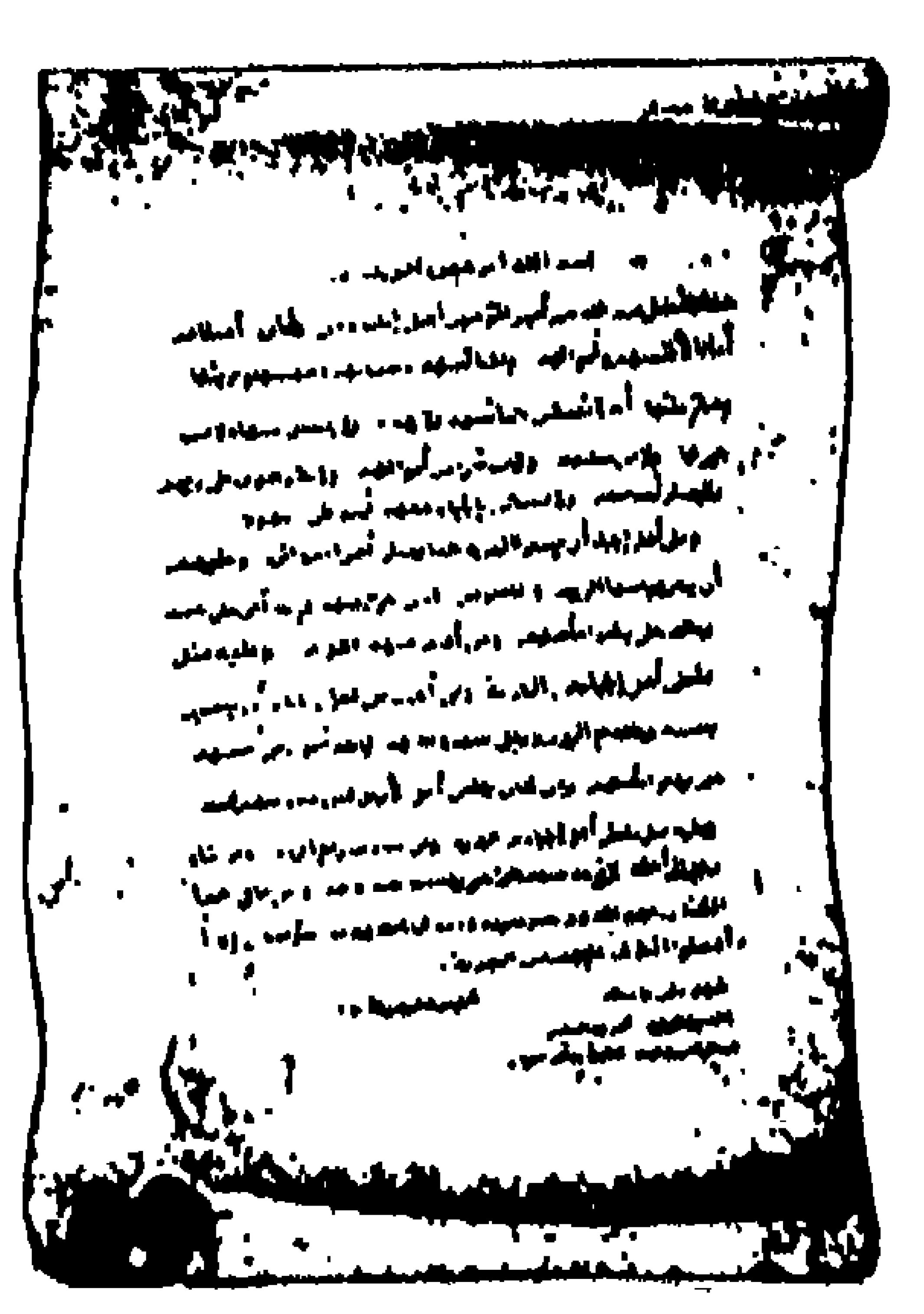
تسلَّمُ عمرُ بنُ الخطابِ مفاتيحَ المدينةَ منَ النصارى وحانَ موعدُ الصلاةِ، وسمعَ عمرُ المؤذنَ يؤذنُ، وأرادَ أن يخرجَ من الكنيسةِ ليصليَ فطلب منهُ صفوانيوس أن يصليَ في الكنيسةِ، فرفض، عندها سألَ صفوانيوسُ عمرَ لماذا رفضت الصلاةَ في الكنيسة أجابَهُ عمرُ: لا أحبُّ أن يأتي قومٌ بعدي يخرجونكم من الكنيسة ويهدمونها ويقولون: هُنَا صلىَ عمر بن الخطاب..

وبَعْدَ أنْ صلَّى عمرُ قربَ الكنيسةِ سارَ نَحْوَ الصخرةِ المشرفةِ فوجدَ فوقها تراباً كثيراً فتناولَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثوبَهُ ووضعَ فيهِ كثيراً من الترابِ وحملَهُ معَ بعضِ المسلمينَ وألقوه بعيداً وبادرَ كثير من المسلمينَ بإزالةِ الترابِ عنَ الصخرةِ حتى لمْ يبق شيءٌ، وصلى أمامَ الصخرةِ مَعَ جمعٍ منَ المسلمينَ وأمرَ بإقامةِ الصلاةِ في هذا المكانِ في كلِّ أوقاتِها.

اقامَ عمرُ في بيتِ المقدسِ عَشرةَ أيامٍ نظَّم خلالَها أحوالَ المسلمين

والنصارى وسارت الأمورُ على ما يرامُ ثُمَّ عادَ بعدَ ذلكَ إلى مدينةِ رسولِ الله ﷺ، وتابعتْ جيوشُ الفتحِ سيرَها نحوَ مِصْرَ وغيرِهَا لنشرِ رايةِ التوحيدِ خفاقةً فوقَ كلِّ مدينةٍ وصلوا إليهاً.

وظلت المدينة تحت رعاية الخلفاء المسلمين، وقد تعاهدوا أسوارها ومسجدها بالبناء والترميم، ويحتفظ كثيرٌ من مرافقها بلمسات البناء الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى اليوم. وبقيت القدس تحت الحكم الإسلامي منذ الفتح العمري سنة ١٧هـ/٦٣٨م وحتى اجتزاء اليهود قسماً منها عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م، ثم احتلوا ما تبقى منها عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. وهي الآن بأسوارها ومسجدها الأسير تنتظر الفاتحين المسلمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

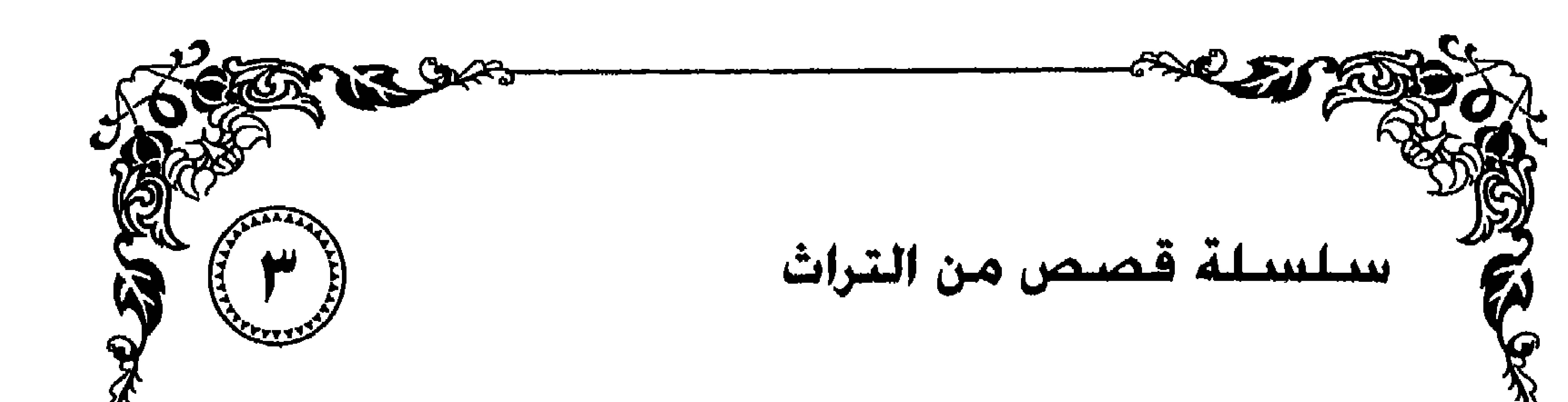
هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم. ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم. ولا ينتقص منها ولا من حيزها. ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله، لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك — كتب وحضر سنة ١٥ هـ

خالد بن الوليد — عمرو بن العاص — عبد الرحمن بن عوف — معاوية بن أبي سفيان

عمر بن الخطاب



القاضي والأمير

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

القاضي والأمير.- الرياض.

١٨ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: X - ٩٩٢ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٥٠

ردمك: X- ٩٩٢ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٥٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

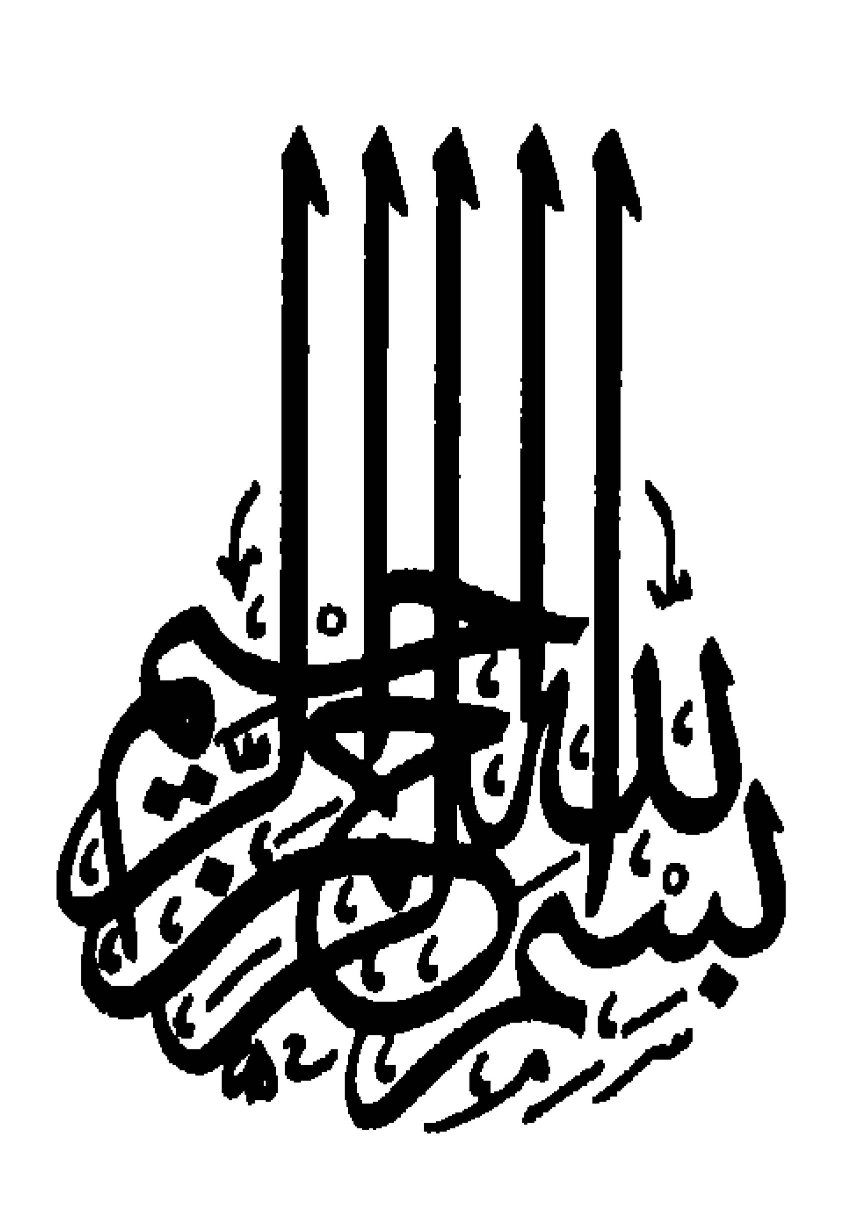
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

اجْتَمعَ الوَرَثَةُ في منزلِ أخيهم الكبيرِ، كانُوا خَمْسَةَ رجالٍ وامرأةً، وَرِثُوا حقلاً واسعًا في الكوفةِ مِنْ أبيهم الذي ماتَ قبلَ مُدةٍ.

اتَّفَقَ الرجالُ الخمسةُ على بَيْعِ حصصِهِمْ للأميرِ موسى بن عيسى الذي أعجبهُ الحَقْلُ وأرسلَ حاجبَهُ لِشرائه.

لم تُوافِق المرأةُ على بيعِ حصَّتِها، حاولَ الإخوةُ إقْنَاعَهَا فلمْ يفلحُوا، وقالُوا لها: مَالَنا والأميرُ، لسْنَا قادرينَ على الرفضِ، وهو قد دَفَعَ سِعْرًا مَعْقُولاً.

صاحتِ المرأةُ: إذًا أردتمْ بيعَ حِصَصِكمْ فهذا شأنكمْ وأَمَّا أنا فلنْ أبيعَ حصتي، مهما حَاولَ الأميرُ.

حاولَ الإخوةُ تحذيرَ أختهم من بطشِ الأمير ورجالهِ لكنَّ الحيلةَ أعْيَتْهُمْ.

قامتِ المرأةُ إلى الحقلِ وخطتْ حِصَّتَها، وأقامتْ جداراً يفصلُ بينَ بُستانِها وبساتينِ إخوتِها، وصارت تخرجُ كلَّ يومٍ إليهِ ولما ثقلَ عليها العملُ استأجرتْ رجلاً مزارعًا يقومُ بحفظِ النخلِ وزرعِ الزرعِ، وسقي الأرضِ بالماء، وأقامتْ له منزلاً صغيراً عند مدخل البستانِ، حتى يظل هناك يحرس الحقل ليل نهارَ.

تنازلَ الإخوةُ الخمسةُ عنْ حصصِهمْ وأتمّوُا البيعَ، وانتقلتِ الملكيةُ للأميرِ الذي ظلَّ يفكرُ في امتلاكِ البستانِ كلِّه.

ذهبَ رجالُ الأميرِ إلى المرأةِ، وسَاوَمُوها على حصَّتِها ودفعُوا لها ثمنًا باهظًا أكْثَر مما أَخَذَ الإخوةُ جميعًا.. لكنَّها رفضتِ البيعَ...

علمَ الأميرُ بشأنِها فاستشاط غضبًا وأمرَ رجالَهُ بمضايقةِ الحارسِ، وفعلاً صارُوا يضايقونَهُ ويرهبونَهُ حتَّى هدموا بيتَهُ الصغيرَ وألقوا أغراضَهُ خارج الحقل فخاف وفَرَّ إلى وسطِ المدينةِ هربًا من الأمير وبطشِ رجالِهِ.

كما قامُوا بهدمِ السُّورِ الذي يفصلُ الحقلَ الصغيرَ عن بقيةِ البستانِ الذي اشتراه الأميرُ وأخيراً دَرستْ(1) معالمُ حقلِ المرأةِ وضاعَ في الحقلِ الكبيرِ ولم يبقَ من أثرِهِ شيءٌ.

عَلِمَتِ المرأةُ بما جرى، فأسرعتْ إلى حقلِها فلمْ تتعرفْ عليهِ امتلأ قلبُها غيظًا منْ فعلِ الأميرِ ورجالِهِ، وتنبهتْ إلى قولِ إخوتها عندما حذروها من بطش الأميرِ، فكرتْ ماذا تفعل؟ هلْ تسكتُ عن الظلمِ أمْ تشتكي على الأميرِ...

قررتْ أنْ تذهبَ إلى دارِ القضاءِ لترفع شكوَى على الأمير عمّ خليفةِ المسلمينَ المهديّ.

كانَ قاضي الكوفةِ يَومها شُرَيْكَ بنَ عبدِ الله، القاضي العادلُ الذي لا

(1) درست: أزيلت.

تَأْخُذه في الله لومةُ لائمٍ.

دخلتْ دار القضاءِ، وصرختْ بأعلى صوتها: أُريدُ القاضيَ شريكَ بنَ عبدِ اللهِ، أين أنتَ يا أبا عبدِاللهِ

- ما الأمرُ أيتُها المرأةْ.

- لقدْ ظُلمتِ يا أبا عبدِاللهِ.

- ومَنْ ظلمَكِ.

- أمير الكوفةِ موسى بنُ عيسى، عمٌّ أمير المؤمنين القابعِ في بَغْدَادَ.

- وكيفَ ظلمَكِ، هَدِّئي مِنْ رُوْعِكِ يا أختاهُ وقُصِّي عليَّ قصتَك.

وقصتِ المرأةُ قصتَها على القاضي شريكٍ الذي استمعَ إليها باهتمامٍ ولما انتهتْ قالَ شَريكٌ: يا غُلامُ.

- أَمْرُ مولايَ.

- اكتبْ إلى الأميرِ موسى بن عيسى كتابًا تدعوهُ فيهِ إلى الحضورِ واخْتمهُ بخاتمي، فكتبَ الغلامُ الكتابَ.

أخذَ الحاجبُ الكتابَ وانْطلقَ بهِ إلى دارِ الإمارةِ وأعطى الكتابَ للأميرِ وقالَ لهُ: هذا كتابٌ من القاضي شُرَيْكٍ يدعوكَ للمثول أمامَهُ.

أخذَ الأميرُ الكتابَ وقرأَهُ، فتغيرتْ ملامحُ وجهِهِ وصاحَ بغلامه: ادعُ لي صاحبَ الشّرطةِ في الحالِ وما هيَ إلا لحظاتٌ وصاحبُ الشرطةِ يقولُ: لبيكَ أيُّها الأميرُ

- امضِ إلى شريكٍ وقلْ لهُ: يقولُ الأميرُ: يا سبحانَ اللهِ. ما رأيتُ أعجبَ منْ أمرِكِ يا شريكُ، امرأةٌ ادَّعتْ دعوى لمْ تصحْ أتأخذُ بأقوالِها.. وتطلبُ من الأميرِ المثولَ أمامَها؟!

- إنْ رأى الأميرُ أنْ يعفيني من هذهِ المهمةِ.

- ولمَ؟

- إنني أعرفُ شريكًا وأعرفُ ما سيحدثُ لي إنْ طاوعتُكَ.

- امْضِ ويلكَ

خرجَ صاحبُ الشرطةِ من دارِ الإمارةِ مهمومًا، فقدْ عرفَ مصيرَهُ وعرفَ أينَ سيقْضي تلكَ الليلةَ وربَّما غيرَها، فطلب من غلمانهِ أنْ يسبقوهُ إلى السِّجنِ ويحملوا معهم فراشًا وبساطًا وطعامًا وما تدعو الحاجةُ إليهِ.

ثمَّ مضى إلى شُريْكٍ ووقفَ بين يديهِ وتكلَّم معهُ بشأنِ المرأةِ والبستانِ كما أوْصَاهُ الأميرُ.

أنْصَتَ[١] شريكٌ لصاحبِ الشرطةِ ولما أنهى كلامَهُ قالَ شريكٌ لغلامِه: خذْ بيدِهِ وضعْهُ في السِّجنِ، عندهَا قالَ صاحبُ الشّرطةِ: واللهِ لقد علمتُ مَبيتي هذهِ الليلةَ وربَّما غيرَها، فسبقتْني فرشَتي والحافي هناكَ.

عَلِمَ الأميرُ ما حصلَ لصاحِبِ شرطتِهِ فدهشَ ممَّا جرى، فاستدْعَى وزيرَهُ على عجلٍ وأمرَهُ أنْ يذهبَ في الحالِ إلى شريكٍ ويقولَ لَهُ: يقولُ الأميرُ: رَسُولٌ أدَّى إليكَ رسالةً، أيّ شيءٍ عليه لماذَا تحبسه؟ وأوصَاه أنْ يتلطفَ معَهُ ويرجُوه أنْ يفرجَ عن صاحبِ الشرطةِ، وألا يحمِّل الدعوى أكثرَ منْ ذَلكَ قبلَ الوزيرُ هذهِ المهمةَ وهو على يقينٍ بالذي سيحصلُ لهُ ولكنَّهُ لمْ يستطعْ رفضَ طلبِ الأميرِ.

وصلَ الوزيرُ إلى دارِ القضاءِ وقالَ لشريكٍ ما أوصاهُ به الأميرُ. استمعَ شريكٌ إلى الوزير بهدوءٍ فلمَّا انْتَهى قالَ لِغُلامِه.

خُذْ بيدِهِ واذْهبْ بهِ إلى رفيقهِ صاحبِ الشُّرطةِ، فما أنْ رأى صاحبُ الشُّرطَةِ وزيرَ الأميرِ يدخلُ عليهِ برفقةِ السجانِ حتى قَهْقَهَ ساخرًا ثم أردف قائلاً: أوَقدْ أرْسلك الأميرُ كما أرْسَلني...

انتظر الأميرُ عودةَ وزيرِهِ، بفارغ الصَّبْرِ وما هيَ إلا لحظاتٌ حتى علمَ

---

(١) أنصَت: استمع باهتمام.

الخبرَ، ولكنْ ما الذي سيفعلُهُ؟ قاتل اللهُ الطمعَ والجشعَ، مالي وللمرأةِ وبستانِها، هكذا صار يهذي ويلوم نفسَهُ.

جلسَ في قصرِهِ مكتئبًا، كوَّر قبضتَهُ وأسندَ عليها رأسَهُ وأخذَ يفكرُ في أمرِ هذا القاضِي الذي شغل بالَهُ، وبالَ إمارتِهِ، ما الحلُ في هذهِ القضيةِ؟ وكيفَ الخروجُ مِنْ وَرْطَتِهَا؟ وصار يُناجي نفسَه:

هلْ أرسلُ شخصًا آخر، لا.. لا... فالسجنُ مصيرُه: هلْ أذهبُ بنفسي إلى دارِ القضاءِ، لا.. ربما أسجنُ كالوزيرِ وصاحبِ الشُّرطةِ وساكونُ أضحوكةً في الكوفةِ كلِّها.

وأخيرًا اهْتدَى إلى خُطَّةٍ عَسَاها أن تحلَّ المشْكلةَ وتنقذَهُ مما هو فيه.

أَرْسَلَ حجابَهُ وغلمانَهُ يَدْعونَ وجوهَ الكوفةِ(١) إلى الاجتماعِ مع الأميرِ بعدَ صلاةِ العَصْرِ، فحضرَ المدعوونَ وصلوا العصرَ مع الأمير وكانَ منهمْ إسْحاقُ بن الصباحِ الصديق الوفيُّ للقاضي شُريكٍ.

ولـمَّا انتهتِ الصلاةُ خاطبهم الأميرُ قائلاً: اذهبوا إلى القاضي شريكٍ وأبلغوهُ سلامي، وقولُوا له: إنَّهُ استخفَّ بالأميرِ وأنا عمُّ أميرِ المؤمنين، وإني أكادُ أفقدُ هَيْبتي بينَ العامة، واطلبُوا منهُ أنْ يُفْرجَ عنْ صاحب الشُّرطةِ

(١) وجوه الكوفة: أعيانها ورجالها المشهورون.

والوزير، وأنْ ينهيَ القضيةَ دونَ ضجيجٍ.

مضَى إسحاقُ بنُ الصَّباحِ وجماعتُه إلى القاضي شريكٍ، وكلُّهم متيقنون أنَّ شُريكًا سيستجيبُ لهمْ لأنَّهمْ أعْيَان الكوفة ووجهاؤها، سألُوا عنهُ، فوجدوهُ جالسًا في المسجد وحَوْلَهُ جماعةٌ من النَّاسِ يستفتونَهُ في أمورِ الدينِ.

انتظر الوفدُ حتى أنهى القاضي جلْسَتَهُ فتكلَّموا في أمرِ المرأةِ والوزيرِ وصاحب الشُّرطةِ وأبلغُوه رسالةَ الأميرِ فلما أنهوا كلامَهُمْ وقفَ شريكٌ قائلاً لهمْ: كيف تجرؤون على الحديثِ في أمرٍ ليسَ منْ شأنِكم؟ لماذا لمْ تحضروا قبلَ هذا اليومِ لرفعِ الظلمِ عنِ المرأةِ الضعيفةِ؟

ثم سكتَ بُرهةً، ونادى في الجماعةِ التي كانَ يُفْتيها: مَنْ منكمْ يُريدُ أجرًا قد ساقَهُ اللهُ إليهِ، فصاحَ جَماعةٌ من الفتيانِ: نحنُ مستعدون!! فقالَ لهمْ: ليأخذْ كلُّ رجلين منكمْ واحدًا من هؤلاءِ الرجالِ واذْهبُوا بهمْ إلى السِّجنِ!! ثم قالَ لوجوهِ الكوفةِ: لم تأتُوا إلا للفتنةِ وما جزاؤكمْ عندي إلا الحبسُ.

دَهِشَ الوفدُ منْ أمرِ شُرَيكٍ وقالوُا له: أحقًا تريدُ أن تحبِسَنا؟.

قال شُريكٌ: وهلْ أمزحُ معَكم؟ أريدُ أن أحبسَكم حتَّى لا تكونوا يدًا للظالمِ يبطشُ بها مَنْ يُريدُ.

صاحَ إسحاقُ بنُ الصباحِ: وأنا يا أبا عبدالله هل أذهبُ إلى السجنِ؟ قال شُريكٌ للغلمانِ: ليكن صَديقي إسحاقُ بنُ الصَّباحِ أولَ منْ تأخذونَهُ!!

خرجَ الرِّجالُ منَ المسجدِ وكلٌّ واحدٍ منهمْ يُمْسِكُ به اثنانِ منَ الفتيانِ ومرُّوا في شوارعِ الكوفةِ، ورآهمْ جَمْعٌ غفيرٌ مِنْ النَّاسِ، وسارَ بعضُهم خلفَهمْ حتىَّ وصلوا إلى السجن، وكانوا حَديثَ الكوفةِ يومَها.

وسرعانَ ما علمَ الأميرُ موسى بالأمرِ، لقدْ كانَ في قصرِه ينتظرُ قدومَ الوفدِ مصحوبًا بصاحبِ الشُّرطةِ والوزير، ولما شاهدَ النَّاسُ وجوهَ الكوفةِ يسيرونَ بقبضةِ الفتيانِ إلى السجنِ كانت العيونُ[1] قد أعْلَمَتْهُ الخبرَ.

اشتدَّ غيظُهُ، وامتلأ قلبُهُ حقدًا، وغِلاً، وصارَ يناجي نفسَهُ: أيعقلُ أنْ يفعلَ بي شُريكٌ كلَّ هذا.

لَنْ أنتظرَ كثيراً، لقد بلغَ السيلُ الزبى[2]، لن أكونَ موضَع استخفافٍ في الكوفةِ أكثرَ مِنْ ذلكَ.

أيُّها الجنودُ، أيُّها الحراسُ، عليكم بالذهابِ إلى السجن في الحالِ وأخرجوا كلَّ مَنْ هناكَ على ذمةِ قضيةِ البستان والمرأةِ.

---

(١) العيون: الجواسيس.

(٢) مثل يضرب عند مجاوزة الحد.

هكذا صرخَ الأميرُ في رجالِه، وما كانَ منهمْ إلا أنْ استجابُوا لأمرِهِ فذهبوا إلى السجنِ وأمَروا السجَّان بفتحِ بابِ السجنِ، وقاموا بإخراجِ كلِّ مَنْ حَبَسَهُ شريكٌ في هذهِ القضيةِ.

فرحَ المسجونونَ الخارجونَ، ودَهِشَ صَاحِبُ الشُّرطةِ وظن أنَّ شريكًا قد أمرَ بالخروجِ، فحملَ فرشتَهُ ولحافَهُ وسبقَ القومَ إلى بيتِه.

وفي اليومِ التالي، جلس شَريكٌ للقضاءِ، جاءَهُ السَّجانُ بالخبرِ المزعجِ لم ينتظرْ كثيرًا، هلل[1] وحوقل[2] ثم جمعَ أوراقَهُ كلَّها، ووضعها في محفظتِه وختمَها، وأمر غُلامَهُ بفض[3] المجلس وذهبَ إلى منزلِه مُسْرِعًا شَعَرَ بعضُ مساعديهِ بنيتِه السَّفرِ إلى بغدادَ، فلحقوه إلى منزلِه فرأوهُ يرتبُ أغراضَهُ فسألُوه أنْ يتريثَ قليلاً فقالَ لهم: واللهِ ما طلبناً هذا الأمرَ منهمْ ولكنْ أكْرهونا عليهِ، لقد ضَمِنُوا لنا الإعزازَ وعدمَ التدخلِ في شؤونِ القضاءِ، وأنْ نقْضيَ بينَ الناس على شرعِ اللهِ وسنةِ رسولِه وأنْ نحكمَ بالعدلِ، أيرضيهم أنْ نَظْلِمَ الناسَ ونبغي عليهمْ؟ كلاَّ واللهِ.

ثمَّ جهزَ راحلتَهُ متوجهًا نَحْوَ قنطرةِ الكوفةِ يريدُ بغدادَ، ليقابلَ أميرَ المؤمنين المهدي ليعفيهُ منْ هذا العملِ.

(١) هلل: قال لا إله إلا الله.
(٢) حوقل: قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.
(٣) فض المجلس: أنهاه.

لمْ يَمْضِ وحدَهُ، بلْ لحقَهُ، غلامُه وجيرانُه وكاتبوهُ ومساعدوهُ وكانَ مَوْكِبًا مهيبًا، الكلُّ يدعو لهُ بالثباتِ والخَيْرِ، ومنهم منْ يغبطُهُ على هذهِ الجرأةِ في الحقِ، والإصرار على العدلِ.

بَلَغَ الخبرُ الأميرَ موسى بنَ عيسى على عجلٍ وكادَ يفقدُ صوابَهُ.

أيعقلُ أن يتركَ شُرَيكٌ هذا المنصبَ، ويذهَب إلى بغدادَ؟ لم يتأخر الأميرُ كثيراً فالموقف عَصِيب[1] أسرعَ وركبِ جوادَهُ وانطلقَ يعدُو خلفَ الموكبِ حتىًّ أدركَهُ.

– السلامُ عليكَ يا أبا عبدِ اللهِ.

– وعليكمُ السَّلامُ أيُها الأميرُ.

– أيرضيكَ أنْ تتركَ الكوفةَ دونَ قاضٍ؟

– أيرضيكَ أنْ أحكمَ بالظلمِ؟ ابحثْ عنْ قاضٍ آخرَ لعلَّهُ ينصركَ على البائسينَ والمظلومينَ.

– يا أبا عبدِاللهِ أُناشِدُكَ اللهَ أنْ تبقى مَعنا القضيةُ لا تستحقُ كلَّ هذا.

بل تستحقُ أكثرَ من هذا أيُّها الأميرُ.

---

(١) عصيبٌ: شديد الهولِ.

- أتحبسُ إخوانَك وأصدقاءَكَ، ولمْ يأتوكَ إلا في شفاعةٍ.

- نعم أحبسهمْ، لأنَّهم تدخلُوا فيما لا يَعْنِيهمْ، وسَعَوا إليَّ لأحقَّ الباطلَ وأبطلَ الحقَّ.

- يا أبا عبدِالله، ارجعْ إلى الكوفةِ، وسأُسوي الأمورَ كلَّها ولا تكنْ إلاَّ راضيًا.

- بل رضا اللهِ سبحانَهُ وتعالىَ في خلقِه أجمعين.

- مَا عَليَّ أنْ أفعلَهُ يا أبا عبدِالله حتَّى ترجعَ؟

- أنْ تردَّ جميعَ مَنْ أخرجْتَ من السِّجن.

- سأردُّهم حالاً.

- ولنْ أبرحَ مكاني هذا حتىَّ أتيقنَ الخبرَ.

- سمعًا وطاعةً أيُّها القاضي.

في الحال أمَرَ موسى بعضَ غلمانِه أنْ يسرعَ للتوِّ إلى قصرِ الإمارةِ ويطلبَ منَ السَّجانِ أنْ يَرُدَّ كلَّ من خَرجَ من السِّجنِ على ذمةِ هذهِ القضيةِ.

وظلَّ شريكٌ واقفًا مكانَهَ حتى أتاهُ السَّجَانُ فقالَ لهُ: قد عادوا جميعًا إلى السِّجنِ.

ـ هل مِنْ شيءٍ آخرَ يا أبا عبدِاللهِ.

ـ نعمْ أنْ تذهبَ معي إلى مجلسِ القضاءِ.

ـ كما تريدُ يا أبا عبدالله.

عادَ شريكٌ والأميرُ إلى الكوفةِ، والموكبُ وراءَهمْ، ودخلا مجلس القضاءِ. أمرَ شريكٌ أنْ تحضرَ المرأةُ المتظلمةُ، فحضرتْ مسرعةً. فقالَ لها:

ـ هذا خصمُكِ قدْ حضرَ فقومي إلى جانبهِ.

قامتِ المرأةُ وجلسَتْ مع موسى وشريكٌ أمامَهما.

قالَ موسى: لقد أطعتُ الأمرَ فهلْ تأذنُ لأولئكَ بالخروجِ منَ السجنِ؟

ـ نعمْ.

وأَمَرَ شَرِيكٌ بإخراجهمْ من السجنِ ثمَّ قالَ:

ما تقولُ فيما تدعيهِ هذهِ المرأةُ.

ـ صَدَقَتْ.

ـ تردُّ لها ما أخذْتَهُ، وتبني حائِطًا كما كانَ.

ـ أفْعَلُ ذَلكَ.

ثم قال للمرأةِ: أبقيَ لكِ عليهِ دعوى؟

- نعمْ أيُّها القاضي.

- وما هي؟

بيتُ الحارس ومتاعُهُ.

- قالَ عيسى: ويُرَدُّ ذلكَ كلُّهُ

- أبَقِيَ لكَ دعوى أيَتُها المرأةُ غيرَ ما ذكرتِ.

- لا، وبارك اللهُ عليك، وجزاك كلَّ خير، وأبقاكَ عَوْنًا للمظلومين.

ثمَّ أذنَ لها بالانْصرافِ.

عندها قالَ الأميرُ: وأنَا ألاَ أنصرفُ كَمَا انْصرفَتْ غَرِيْمَتي(١)؟

- مهلاً يا أخي

- أخي!!

قامَ شُريكٌ وأخَذَ بيد الأميرِ وأجلسَهُ في مجلسهِ وقالَ:

السلامُ عليكَ أيُّها الأميرُ، كيف حالُكَ وأهلُكَ؟

---

(١) الغريم: الخصم.

ذُهِلَ الأميرُ من سؤالِ شُريكٍ وصاحَ: ماذا تقولُ؟

قالَ شُريكٌ: سبحانَ اللهِ، أطمئنُ عليك،.. فَهَلْ تأمُرَني بشيء.

– أنا آمرك بشيءٍ وضَحِكَ ضَحْكَةً ملأتْ دارَ القضاءِ.

نعمْ أيُّها الأميرُ وأقولُ حَقًّا، الآن انتهينا من الدَّعْوَى، إنَّ الذي فَعلتَهُ هُوَ حقُّ اللهِ في عبادهِ على كلِّ إنسانٍ، أمَّا هذا القولُ الذي ضحكتَ منْهُ فهو حقُّ الأدبِ والضيافةِ على المسلمِ.

قامَ الأميرُ وانصرفَ وَهُوَ يقولُ:

مَنْ عظَّم أمرَ اللهِ أذلَّ اللهُ لهُ عظماءَ خلقهِ.



٤

أبو نصر الصياد وأحمد بن مسكين

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

أبو نصر الصياد وأحمد بن مسكين. ـ الرياض.

١٧ ص، ١٧×٢٢ سم ـ (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ١ ـ ٩٩١ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ـ القصص القصيرة العربية ـ السعودية

أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٩

ردمك: ١ـ ٩٩١ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٩

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

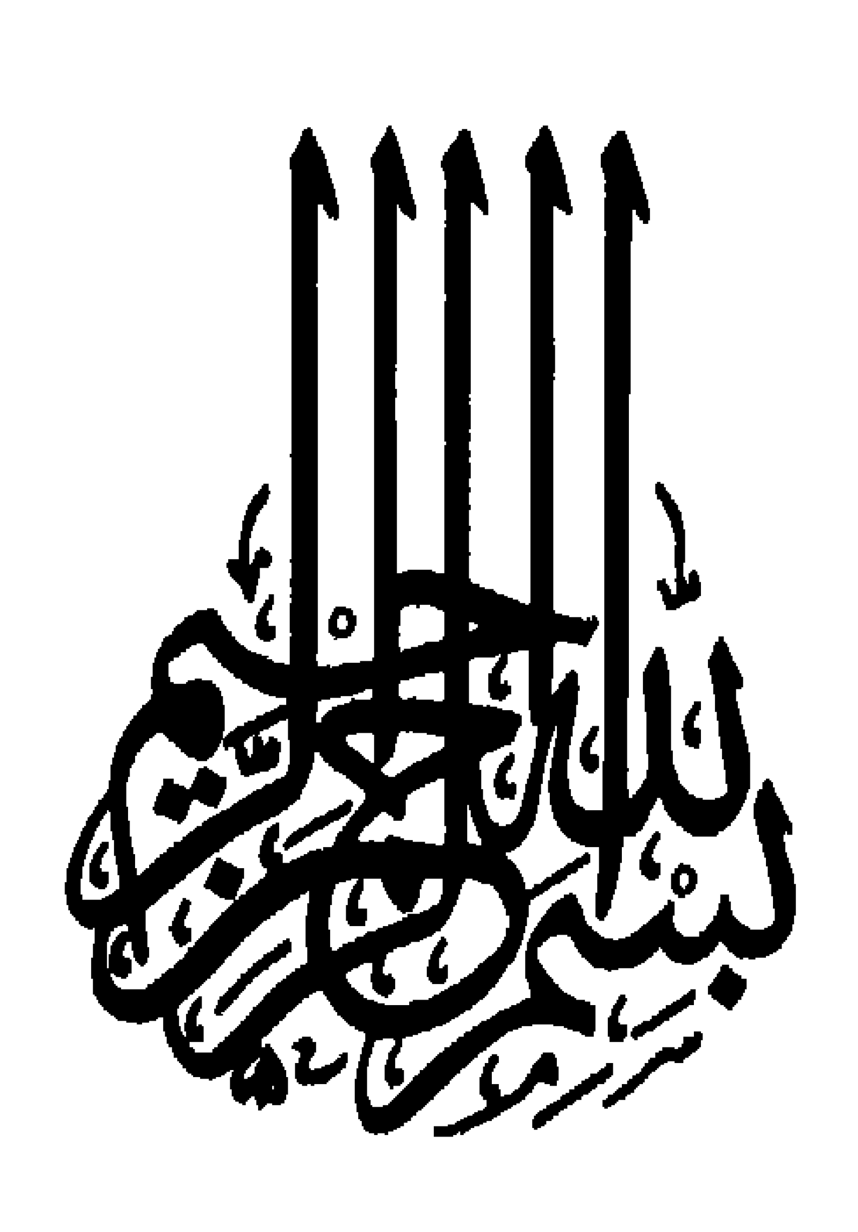
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



حُبِسَتِ الأمطار، واشتدَّ القحطُ والجفاف، ونفدت الغلالُ، وعمت المجاعة أرض الكوفةِ، فعاش الناسُ في بؤسٍ وحرمان، خرج الأتقياء لصلاة الاستسقاء يدعون ربهم الرحمةَ والمغفرةَ، ينتظرونَ فرجًا يُغيث البلادَ والعباد.

لقد طال الانتظار، وكاد الجوع يفتك بالناس.

خرجَ أبو نصرٍ الصيادُ منْ بيتهِ حاملاً قفَّتهُ وشباكَهُ، فقد اعتادَ أن يخرجَ كلَّ يومٍ باكرًا إلى شاطئ النَّهرِ باحثًا عن رِزْقِه. ولكنَّهُ عادَ هذا اليوم، مثل كلِّ يومٍ خاوي الوفاض: إلاَّ من همومٍ شائكةٍ ينزفُ منها قلبهُ ألمًا على صغارٍ تركهم في بيتهِ المتواضعِ، يتضورون جوعًا مع أمِّهم، لا يجدون ما يسدُّ رمقهم ويدفعُ عنهمُ غائلة الجوعِ والحرمان.

كان هذا اليوم من أشد أيام أبي نصر، لم يبق في بيته شيئٌ من مؤنةٍ يسدُّ بها رمق أطفاله الصغار، حتى كسرات الخبز نفدت.

اسودّت الدنيا في عينيهِ، ماذا يفعل؟ كان فيما مضى يملأ قفَّته بأنواعٍ من الأسماكِ يذهبُ بها إلى السوقِ يبيعُها ويشتري بثمنِها خبزًا ولَحمًا وخضراواتٍ ويعود بها إلى المنزلِ ليأكلَ منها مع أولادهِ وهو في سرورٍ وحُبورٍ.

وفي طريقِهِ إلى بيتِهِ، سألَ نفسَه ماذا أفعلُ في المنزلِ؟ الصغارُ ينتظرون الطعامَ بفارغِ الصبرِ، وكم ستكونُ صدمتهُم كبيرةً عندما يرونَ القُفَّةَ فارغةً.

قادَتْهُ قدماه إلى المسجدِ الذي واظبَ على أداءِ الصلاةِ جماعةً فيه على الرغم من أَنَّ الأذانَ لم يحنْ بعدُ، ولكن علَّه يدعو الله أن يخفِّف عنه ما هو فيهِ، وأن يزيلَ بؤسه وغمَّهُ.

وقفَ بَيْن يدي اللهِ مصليًا داعيًا.. مُلقيًا بهمومهِ إلى مَنْ تكفَّلَ بإزالتها وفي لحظةِ خشوعٍ نسيَ فيها دُنياه وآلامَها، وارتوى من رحمةِ اللهِ الأملَ والصبر الذي كان يصبو إليهما، ولكنهُ في هذه اللحظاتِ الجميلةِ لم ينسَ أطفالهَ وبكاءَهمُ من الجوعِ، فكانت صورُهم في مخيلتِهِ داعيًا لهم أنْ يُفرجَ اللهُ كربَتَهم.

فاطمأنت نفسه وهدأت ثورة حزنه.. وجفت دموع ألمه على أطفاله الجياع..

وفي هذه اللحظة الإيمانيَّةِ النورانية الرائعة شعرَ بيدٍ رقيقةٍ حانيةٍ تُربِّتُ على كتفهِ.. وتقتربُ من وَجْنَتَيْهِ تمسحُ دموعَهُ..

- مالك.. ماذا أصابَكَ يا أبا نصر؟

التفَتَ وإذا بشيخِهِ بشر الحافي ينظر إليهِ وابتسامةٌ مشفِقة رحيمة تزيِّن وجهًا مطمئنًا يضيء النور ثناياه ويهبُ حبًا لمن رآه.

نهض أبو نصر وعانقَ شيخَهُ.. وألقىَ كُلَّ ما في جعبتِهِ من هموم وآلام سأله عن سبب تلك الهموم والشجون، فأجابه: إنَّهُ الفَقْرُ يا أخي.. لم أصطد شيئًا هذا اليوم.. ولا اليوم الذي قَبْلَهُ ولا اليومَ الذي قبلَ قبلِهُ... و...

– لم أعهدك يا أبا نصر إلاَّ رجلاً صبوراً لا تهزّه رياح البؤسِ والفقر مؤمنًا بما كتبه الله له..

– واللهِ يا صاحبي لولا صغارٌ حرمَهُم الجوعُ نومَهُمْ ما ذرفْتُ دمعةً.

– لا بأس يا صاحبي .. هَوِّن عليك.. مادمْتَ قد سَألتَ من لا يرد سائله تعالَ نسأل اللهَ مَرَةً أخرىَ فلا ييئس من رَوْحِ الله إلا القوم الظالمون.

ويرفَعُ بشرٌ يَديْه إلى السماء، ويلهجُ بالدُّعاءِ ويقفُ أبو نصرٍ عن يمينه يؤمِّنُ على دعائه..

«اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن(١)، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبخلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ(٢) الدَّيْن وغلبة الرجالِ.

(١) الحزن: الغم والهم.
(٢) ضلع الدَّين: ثقله

«اللهم ارزق عبدك الفقير رزقًا وفيرًا»

«اللهمَّ – يا واسعَ العطاءِ – فرِّج على عبادك المساكين»

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً

وحينما انتهيا من الدعاءِ التفت إلى أبي نصر وقال له: اذهبْ وحاولْ مرةً أخرى يا أبا نصر...

كلماتُ صاحبِه سَرَتْ في عروقِهِ.. وأضاءَت منافذَ قلبِه وعقلِه وأمدَّتهُ بشحنةِ طمأنينةٍ لم يشعرْ بها في حياتِه، فألهبتْ وجدانَه.. وأشعلَتْ براكينَ شوقه إلى اللهِ فأخذَ يلهجُ بالدُّعاءِ اللهُمَّ ارزُقني.. يا أرحمَ الراحمين.

وبدأت الدموعُ تسيلُ على وجنتيه[1] فتتخلَّلُ لحيتَه فتحيي نضارتها.. وكأنّها عشبٌ يابسٌ باهتٌ حَنَّتْ عليهِ مياهُ المطرِ.. فنضَّرته.. وأحيته..

ويرجعُ أبو نصر إلى حيثُ كان.. ويقفُ أمامَ الشاطئِ مُخاطبًا.. بعد أنْ ألقى شباكه:

أيُّها البحرُ.. ما عُدتُ إليك إلا راجيًا رزقَ ربي وربك الذي سَخَّرك لعبادِه.. وأنا لا أطلبُ رزقي إلاّ منه.. إنَّه هو الرَّزاقُ.. يا اللهُ. يا اللهُ.

(١) وجنتيه: أعلى الخدين.

وفجأةً.. ثَقُلَت الشباكُ.. الحمد لله.. الحمد لله.. لابدّ أن الرزقَ أتى.. ويشدُّ الشباكَ.. فيرى سمكةً كبيرةً تُحاوِلُ تخليصَ نفسِها من شباكِ أبي نصرٍ.. ولكن هياتَ لها.. إنَّهُ أمرُ اللهِ.. إنَّها رزق أبي نصرٍ يأخذُها فرِحًا.. مستبشِرًا.. حامِدًا الله شاكرًا له فضلهُ.. مُتذكرًا صديقه بِشْرًا. ويذهبُ إلى السوقِ في الحالِ ويبيعُها بثمنٍ لا بأسَ بهِ.. إنَّهُ لا يطمعُ بأكثر من طعام لأولادهِ.. ويعودُ حامِلاً طعامَ صغارِه.. وكأنَّه يحمِلَ مالَ العالمِ بَيْنَ يدَيه.. ويرى صغاره أمامَ عينيه.. يلتفون حَوْلَه.. يلتهمونَ طعامًا لذيذًا ما ذاقوا مثله منذ أسابيع مضت. وفجأة يتذكر صديقَه بِشْرًا.. يعزِلُ رقاقتين وقطعةً من الحلوى وبينما هو في نشوته عَلاَ صوتُ المؤذنِ داعيًا إلى صلاةِ العصر «الله أكبر الله أكبر..»

ويصحو الرجلُ من أحلامه.. مرددًا الله أكبر الله أكبر.. ويتجه إلى المسجد.. باحثًا عن صديقهِ الوفي.. وفي رُكنٍ بعيد، يراه.. مُسبحًا مستغفرًا.. عابدًا.. خاشعًا ينتظر إقامة الصلاة.. يقتربُ منه.. مبتسمًا.. منتصرًا.. وكأنه طفلٌ وجدَ ضالَّتهَ.

صديقي الحبيب لقد أكرَمني اللهُ وهذا رزقٌ اقتسمتُهُ لك.

ابتسم «بشرٌ» ابتسامةً عميقةً رُبَّما لا يفهمُها إلاّ من ذاقَ حلاوةَ

الإيمانِ.. وعرف معنى الدعاء.. فهو لا يرى في هذه الدنيا ألذّ من لقاءِ الله.. ولا أمتَع من خلوةٍ إلا مع الله..

ردَّ عليه بِلُطْفٍ: خُذْها إلى صغارِك يا صديقي فنحن لا نُؤْجَرُ على الدعاء. وإلاّ لما استجابَ اللهُ لَنَا..

وفي لحظةٍ.. تَعلَّمَ أبو نصرٍ دُرُوسًا لا يتعلمها غيرُه مُدّة دهْرٍ كاملٍ.. نَظَرَ إليهْ.. نظراتِ شُكْرٍ وإعجاب.. ثم صَلَيَا معًا وحمل أبو نصرٍ ما كانَ قدْ جلبَهُ لشيخهِ وخرجَ منَ المسجدِ قاصداً بيتَهُ، وما كاد يمشي خطوات حتى اصطدَمتْ نظراتُه بوجهٍ بائسٍ حزين.

ذَكّره بواقعٍ ليسَ ببعيد.. ذكره بحالِه وكيف كان يشكو القلّة.. اقتربَ منهُ.. يا صاحبي.. يا ابن مسكين.. مالي أراكَ حزينًا بائسًا.

- آه يا صاحبي.. أتيتُ إلى ربي شاكيًا حالَ صغارٍ.. يتضورون جوعًا ويتلوون ألمًا.

وتخرج دمعتان.. إنهما دمعتا مؤمن خاشع.

تذكّرَ فيهما أبو نصرٍ للحظاتٍ حالَهُ.. لا تيأس يا صاحبي.. فلا يأس مع الدعاءِ ولا قنوط من رحمة الله.

خُذْ رزقكَ.. الذي ساقَهُ اللهُ إليك.. هاتان رُقاقتان وقطعة من الحلوى لأطفالك.

أخذها أحمدُ فَرِحاً مُهلّلاً.. حامداً الله.. الذي لا يَردُّ سائلَهُ..

ـ شكراً لك يا أخي وجزاك الله خيراً.

هذا أحمدُ بن مسكين.. يحملُ طعامًا .. يحملُ فرحة لأولاده الجياعِ.. وأمانًا.. وسعادةً.. وما مِن لحظةٍ أحلى من أن تزرَعَ فرحةً في وجوهِ مَنْ تحب.. أو بسمةً في قلوبِهم.. فكيفَ لو جَلبْتَ لهم طعامًا لذيذًا يسكّنُ جوعَهُم.

أمورٌ كثيرةٌ كانت تدورُ في خَلَدِ أحمد بن مسكينٍ وهو عائد إلى بيته.. وصورٌ كثيرةٌ كانت تُرَسمُ أمامَ وجههِ وفي غمرة سعادته. سمع صوتًا بعيدًا اقترب منه، عرف أنه بكاء طفل اقترب أكثر فقد عرف الطفل، إنه طفل يتيم كان جاراً له قبل سنوات استفاق من نشوةِ فرحهِ.. وأقبل عليه يسأله: ما لك يا بني؟؟

لم يَعِرْهُ الطفلُ انتباهًا بَلْ تابعَ حديثه مع أمه قائلاً:

أماه.. أنا جائعٌ.. بطني يؤلمني.. وأنا أشمُّ رائحة الطعامِ أماه.. لماذا لا تشتري لي طعامًا؟

فتجيبه امرأةٌ مسكينةٌ تدرَّعت بالسواد:

صبراً يا ولدي.. إذا صبرت فإنَّ الله لن يتركَكَ جائعًا.. إنَّه يُحبّكُ بشرط أن تصبرَ.. وألاّ تضجر..

أماه.. أنا أُحِبُّ الله.. ولكن بطني لا يرحمني.

– لا بأس يا بني.. إني أرى فرجَ الله قريبًا.

ومَنْ كان الفرجُ الذي أرسلَهُ الله يا ترى؟!

لقد كان أحمد بن مسكين..

اقتربَ من الصغيرِ وقبَّلهُ.. وقالَ لَهُ: يا صغيري. إنَّ الله أرسلَ لكَ هذا الطعامَ.. فهو يعرفُ أنك تُحبِّه.

ودَفَعَ إليه كُلَّ ما لديهِ من طعامٍ دون أَنْ يُفكِّر ..

سُرَّ الولد وأخذ يُقبِّل أمَه.. ويشكُر الرجلَ.. ويحمدُ ربَّه وسرعان ما تناول الطعام بنهم ووجهه ينطقُ بالفرحِ والحبورِ[1] وأحمدُ بنُ مسكين ينظر إليه ودموعُ الفرحِ تذرِف من عينيه.

وأخيراً عاد أحمدُ بن مسكين أدراجه.. ويدُه خاويةٌ من طعامِ أولادهِ

(١) الحبور: السرور.

ولكن قلبه مليءٌ بالإيمانِ والسعادةِ، يفيض برحمة الله وكرمه.

وما قطعَ شروده.. إلا صوتٌ .. قادمٌ من جهةِ المسجد..

- ابنَ مسكين.. يا ابن مسكين..

ليس الصوتُ غريبًا.. التفت فإذا بوجهِ صاحبهِ - أبي نصر -.. يتهلّل فرحًا.. ويشعُّ ضياءً ونوراً..

- ما بك يا أبا نصر؟ ما الخبر؟..

- البشرى - يابن مسكين - إنها قافلةٌ قادمةٌ منْ خراسانَ وتجارها يطلبونك في الحال، إنهم قرب المسجد.

لَمْ يصحُ ابنُ مسكين من هولِ ما سمع.. ولكنه اتجهَ فوراً إلى المسجدِ .. وهو لا يعي.. ماذا هناك؟!..

اقتربَ من الرجالِ.. حيّاهم بتحيّةِ الإسلامِ.. فردُّوا بأحسنَ منها.. اقتربَ منه رجلٌ تبدو ملامح الثراءِ على وجههِ.. وتنطلقُ من ثيابهِ رائحةُ الغنى والعزّ.. وعلى وجههِ تبدو أماراتُ الطيبةِ.. فكللّتهُ ضياءً قال له: أأنت أحمدُ بن مسكين؟..

أجابَه: نعم..

عانَقَهُ.. وقَبَّلَهُ.. وهو يُردِّدُ.. الحمد لله.. الحمد لله..

لقد بحثتُ عَنْكَ طويلاً يا أخي.. الآن شعرتُ بالراحةِ.. ومِنْ دَهْشةِ ابن مسكينٍ.. وشهقة جموعِ الحاضرين.. واستغرابهم.. قال أنا! هل تعرفُني! لعلَّك مخطئٌ يا أخي!..

– نعم.. إنّك تشبهُهُ.. إنَّك تشبهُه كثيراً..

– أشبه مَنْ؟! أخبرني بالله عليك يا أخي.. قَبْلَ أنْ أُخبرَك.. لا بُدَّ أنْ أُسلِّمَكَ أمانةً.. لطالَما ناء[1] ظهري من حَمْلِها.. ولطالما أرْهقتني.. وحرمَتْ مضجعي من النوم...

– خُذْ هذه القافلةَ..

– ماذا أفعل بها.

– إنها لك يا رجل.

نظرَ أحمدُ بن مسكين خلفَه.. ورأى ما رآه.. ثم صَمَت.. وكأنّ لثامًا لجمهُ.. وحُمّى سرت في عروقهِ فأفقدته توازنَه.. وقال: لي أنا؟

– نعم.. وهذه عشرة آلاف دينار خالصة لك أيضًا.

(١) ناء: أثقل.

– لابُدَّ أنَّكَ مخطئٌ.. هل لكَ أن تعرِّفَني بنفسك؟:

– نعم.. إنّه حديثٌ يطولُ شرحُهُ.. ولابُدَّ من جلْسَةٍ طويلةٍ.. لأروي قصتي.

وفي زاوية من زوايا المسجدِ.. جَلَسا.. وحولَهُما عددٌ كبيرٌ من المصلين.. وكان بعضُهم غيرُ مصدقٍ وبعضهم يُحَوْقل وقسم منهم يُكبرٌ ويهلّلَ.

بدأ التاجرُ قصتّه قائلاً:

منذ سنة قَدِمَ والدُك إلى خُراسان.. وكانَ مُجاهداً مغواراً نبيلَ الخلق.. سَمْحَ النفسِ.. كريمًا.. وشَهْمًا.. أعجبتني خلالُه[1] فاتخذتهُ أخًا وصديقًا حميمًا.. وذاتَ يومٍ احتجْتُ إلى بعضِ النقودِ فاستقرضتهُ فأقْرضَني.. وغابَ..

عاهدتُ نفسي أن أتاجرَ له بمالهِ الذي أقرضني إيّاه.. ونَفَّذْتُ ما عاهدْتُ.. وكان رِزْقًا وفيرًا.. وتجارةً مُباركةً..

فنما مالُه كثيراً.. وبحْثتُ عنه وبحثْتُ.. فلم أجده.

(١) خلاله: صفاته.

وأخيراً علمت أنه نال الشهادة في سبيل الله.

وتابْعتُ سؤالي عن أهله.. فقيل لي.. إنَّ لَهُ ابنًا اسمُه أحمد يقطنُ في الكوفةِ.. ففرحْتُ فَرَحًا ما بعده فرح.. وشدَدْتُ رحيلي باحثًا عنك.. وها أنا اليـوم أراك.. وكأنّي أراه.. فأشكر الله على جزيلِ عطائهِ فلتَأْخذِ الأمانةَ يا صاحبي.. وادعولي بالرّحمةِ والمغفرة..

أجاب أحمدُ.. وكأنَّهُ لا يُصدّقُ ما سمعَ.. بارك الله فيك يا أخي.. يا خير التجار نعم الصاحبُ أنت.. ونعم التاجرُ الأمينُ أنت..

وتنفرج أساريرُ أحمد.. ويتهلّلُ وجهُه بالبشر.. ويتجه إلى الله شاكراً مصليًا، ثم قام بتوزيع ما جادت بهِ نفسُه على إخوتهِ المصلينَ، ولم ينسَ صديقه أبا نصرٍ الصيادِ فقد خصَّهُ بحصةٍ كبيرةٍ.

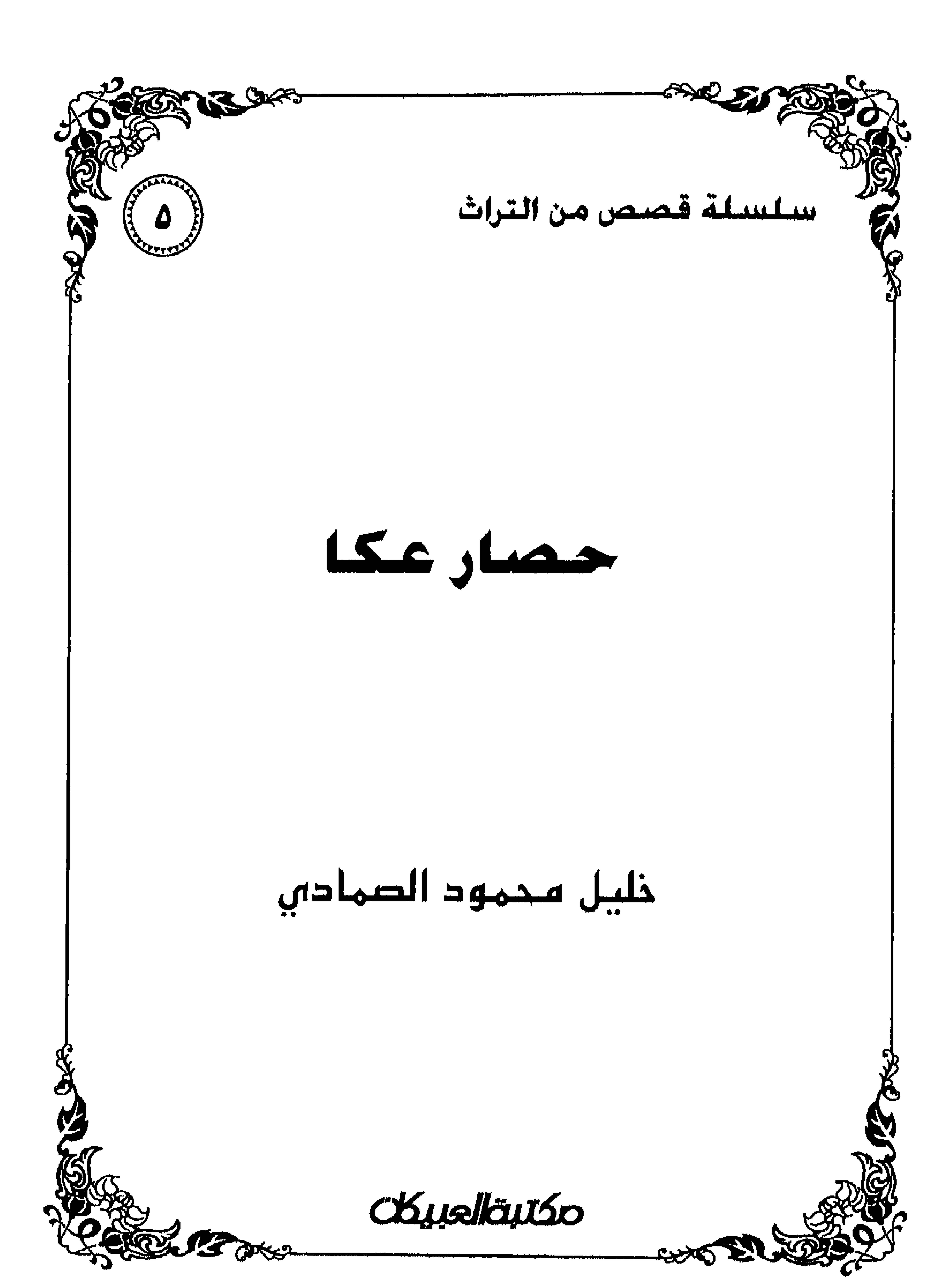
ومن ثمَّ عاد إلى أولادِه حاملاً لهم البشرى والغنى.. وتيقنَ أنَّ الله معه.. وأنه نعم المولى ونعم المصير.

ومرَّت الأيام على أحمدَ بنِ مسكين وها هو يبيعُ ويشتري.. ويتصدَّقُ ويزكي.. وينمو ماله نمواً واضحًا فيُعَرفُ بأنَّهُ من أكابرِ التجارِ وأكثرِهم إيمانًا وأمانةً.. وأفضلهم عطاء..

وظل يضع نصْبَ عينَيْه قصة اليتيمِ والأرملةِ.. وكيف أَنَّ الله منَّ عليه بالرزقِ الوفير وذاتَ ليلةٍ رأى في المنامِ.. أَنَّ القيامة قامت وأَنَّ الملائكةَ تنادي عليه للحساب.. فيُسْحَب للميزان.. فيُؤْمَر بسيئاتِه فتوضَعُ في كِفَّة.. فيراها كالجبالِ فيشعُرَ بالخوفِ الشديد، ويُؤمَر بحسناته فيؤتى بها وتُوْضَع في الكِفَّةِ الأُخرى ولكنَّها لا ترجحُ على كِفَّةِ السيئات، فيشعرُ بخوفٍ شديد.. ويظنُّ أَنَّهُ مع الهالكين، فيُنادى: هل بقي لأحمد بن مسكين شيءٌ. فيقال : نعم الرُّقاقتان والحَلْوى (الطعام الذي أعطاهُ لليتيم) فيُؤتَى بها فتوضَعُ في الميزانِ فتميلُ كِفَّةُ الحسناتِ قليلاً.. فيُنادى: هل بقي له شيءٌ آخر؟ فيُقال نَعَمْ، فَرَحُ الأرملةِ واليتيم، فيُؤْتى به فيوضع في الميزان، فتميلُ كفَّةُ الحسناتِ أكثرَ فأكثر ولكنَّها لا ترجحُ فيُنادى: هل بقيَ له شيءٌ آخر؟ فيقالُ: نعم، إيثارُهُ ودموعُ أولادهِ. فيؤتَى بذلك ويوضَعُ في الميزان فترجح كفةُ حسناته فيتهلل وجهه ويسمعُ مُنَاديًا يقول: ليدخلْ أحمد بن مسكين الجنَّةَ..

يصحو من نومه مُهللاً ليدركَ أَنَّ العمل القليل قد يقودُ صاحبَهُ إلى الجنةِ إنْ قُصِد به وجْهُ الله تعالى...





سلسلة قصص من التراث

٥

حصار عكا

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

حصار عكا .- الرياض.

٢٠ ص، ١٧×٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٩ - ٩٨٤ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٢

ردمك: ٩- ٩٨٤ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

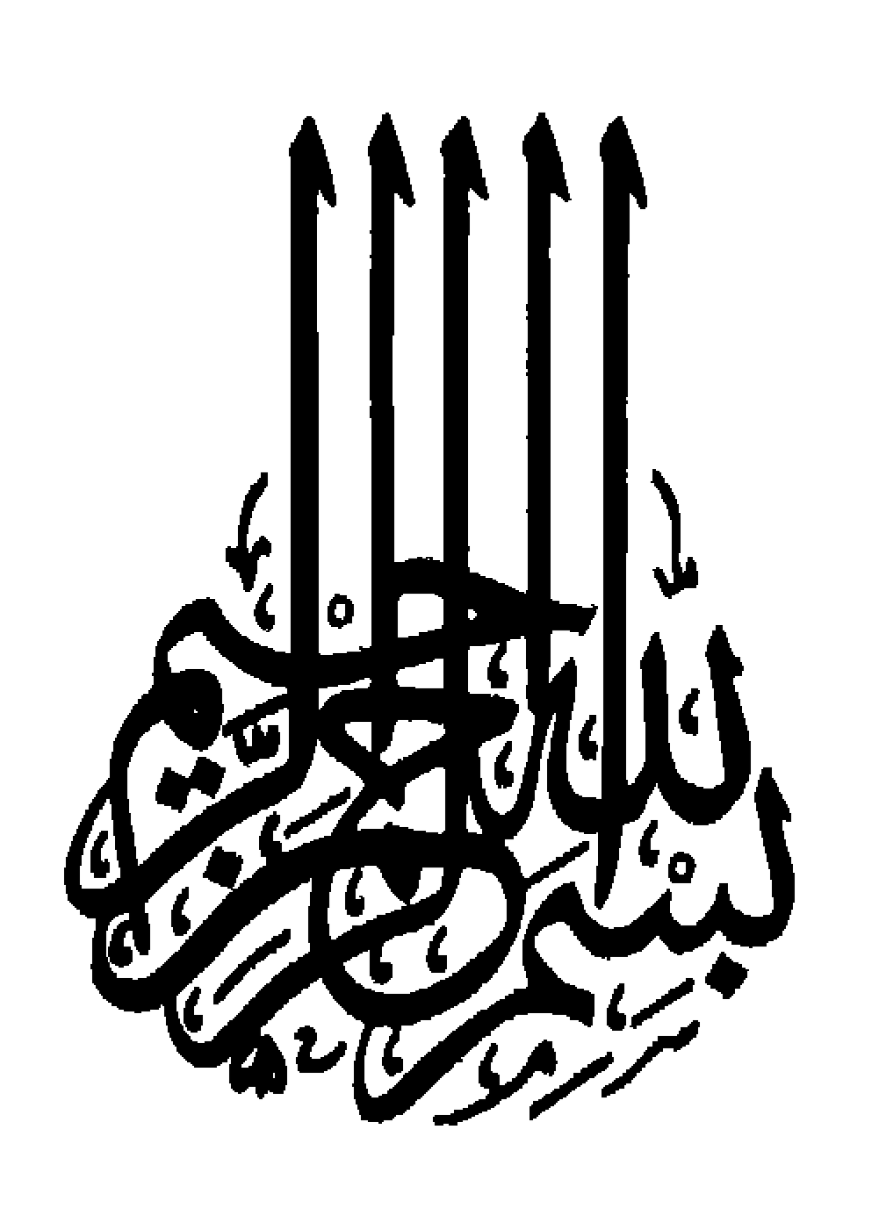
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

عادَ الأَمنُ والاطمئنانُ إلى دمشْقَ، في عهد صلاحِ الدين الأيوبيّ وكثرتِ المدارسُ والرباطاتُ والزوايا والمساجدُ، وصارَ في كلِّ حيٍّ مدرسةٌ أو أكثرُ تعلِّمُ الطلابَ القرآنَ والفقهَ واللغةَ والحسابَ، والعلومَ وغيْرَهَا.

كانَ هناكَ في وسط المدينةِ أسرةٌ تعيشُ على الكفاف.. هذه الأسرة مؤلفةٌ من عثمانَ وزوجتِه وابنهِ اليافع مجاهدٍ وإخوته الصغار.

كانَ أبو مجاهدٍ يعملُ عطَّارا في سوقِ العطارينَ، يبيعُ ويشتري ويركِّبُ الموادَّ المستخلصةَ منْ الورودِ وغيرها.

كانَ تقيًّا ورعًا يتحرَّى الصدقَ في قولِه والإخلاصَ في عملِه، كما كانَ يحبُ العلمَ والعلماءَ فما إنْ كبرَ مجاهدٌ قليلاً حتَّى أرسلهُ إلى إحدى هذه المدارس لينالَ حظَّهُ من الأدب والعلم.

أحبَّ مجاهدٌ مدرسَتهُ ومؤدبيه[1] وأصدقاءه، وصارَ يحفظُ القرآنَ الكريمَ والأحاديثَ الشريفةَ والأشعارَ، كما أحبَّ العلومَ فبرعَ فيها، وصارَ يقومُ ببعضِ التجاربِ العلميةِ اليسيرةِ في بيتهِ فكانَ إخوتُهُ الصغارُ وأصدقاؤهُ يعجبونَ بتجاربه المثيرة.

وفي أوقاتِ فراغهِ كان يذهبُ إلى دكانِ والدهِ يساعدهُ في البيعِ والشراءِ

(١) المؤدب: معلم الصبيان.

ويعملُ معهُ في تحضيرِ بعض العطورِ التي يوصي بها الزبائنُ.

كَبِرَ مجاهدٌ وأصبحَ شابًا يافعًا وكَبُرَ علمُهُ فقد حفظَ القرآنَ الكريمَ وأخذَ إجازةً[1] بذلك منْ شيخِه الذي أحبَّه كثيراً، كما فاقَ أقرانهُ في المدرسةِ وخاصةً في الموادِّ العلميةِ التي شُغِفَ بها كثيراً.

طوَّرَ أعمالهَ في التجاربِ فقد جهَّزَ مختبراً في منزلهِ وظلَّ يجري التجاربَ ويخترعُ موادَّ كانَ يركبُها منَ الأدويةِ والنفطِ والكبريتِ، . . .

ضاقَ أهلُه منَ هذهِ التجاربِ التي كانتَ تزعجُهمَ في بعضِ الأحيانِ، فقدْ حدثَ في يوم ما انفجارٌ دوَّى صوتُه ففزع الجيران، فطلب منه أبوه أن يبتعد عنْ هذه الأشياءِ.

لكنَّ مجاهداً ألحَّ على أبيهِ أنّ يظلَّ في تجاربهِ، فوافقَ والدُه على شرطِ ألا يزعجَ الجيران، وأنْ يقومَ بتجاربهِ بعيداً عن المنازلِ وأنْ ينأى[2] عنَ الخطر. .

فرحَ مجاهدٌ وصارَ يخرجُ في أوقاتِ فراغهِ مع أصدقائه إلى البساتين المحيطةِ بدمشقَ وهناكَ وفي مكانٍ بعيدٍ كانَ يقومُ بتجاربه، ويعودُ إلى بيتهِ وَهُوَ مطمئنُ البالِ بما وصلَ إليهِ. وظلَّ على ذلك مدةً حتى برع بتجاربه المثيرة.

أحبَّ أبو مجاهدٍ أنْ يؤديَ فريضةَ الحجِ. . فقامَ وجهَّزَ راحلتَهُ وأوصىَ

---

(١) الإجازة: الإذن بالرواية.

(٢) ينأى: يبتعد.

مجاهداً بأمهِ وإخوتِه كمَا أوصاهُ أن يفتحَ المحلَ كلَّ يوم وأنْ يحسن معاملةَ الزبائن.

غادَرَ أبو مجاهدِ دمشقَ معَ مجموعةٍ من الناسِ قاصدينَ مكةَ المكرمةَ،

وفي طريقهم وبالقرب من الكركِ، اعترضتهم مجموعة من جنودِ الأميرِ الصليببي أرناط، ثم ساقوهم إلى مقر الأمير بعد أن أشبعوهم ركلاً وشتماً.

تقدمَ الأميرُ أرناطُ منهمْ وقال لهم إلى أين أنتمْ ذاهبونَ أيهَا المسلمونَ؟

تقدمَ أبو مجاهدٍ قائلاً: إلى بيتِ اللهِ الحرامِ لأداءِ فريضة الحجِ.

قالَ أرناطُ: إلى مكةَ. ها ها.. أمازلتم أيها المسلمونَ تذهبونَ إلى مكةَ.. سأريحكم منها سأسيِّرُ الجيوش إليها وأحتلها كما سأحتل المدينة وأنبش قبرَ نبيكمْ!!

عندها لم يتمالك أبو مجاهدٍ فصرخَ بهِ اخرسْ أيها الوغدُ الحقيرُ.

هجمَ أرناطُ وجنودُه على القافلةِ فقتلوا أبا مجاهد وعدداً من الرجال وأسروا آخرينَ ونهبوا كلَّ ما معهم، وقد تمكن بعضُ المسلمينَ من الفرارِ..

كان صلاحُ الدينِ مرابطًا في فلسطين يناوشُ[1] قلاعَ الصليبين

(١) يناوش: يقاتل القوم بالرماح وغيرها.

ويستدرجهمْ إلى المعركةِ الفاصلةِ، فلما وصله الخبرُ استشاطَ غيظًا وأقسمَ على قتلِ أرناطَ بيده.

كما وصلَ الخبرُ المزعجُ إلى دمشقَ، وعلمَ مجاهدٌ ما حصل لأبيهِ وصحبهِ، فحزنَ عليهمْ. واحتسبَهم عند الله، ودعا لهمْ بالرحمةِ والمغفرةِ.

جلستْ أمُّ مجاهدٍ مع أولادها والحزنُ واجمٌ على وجوهم وقالتْ لهم: هذا أمرُ الله يا أبنائي، رحمَ اللهُ أباكمْ، وأدخلهُ فسيحَ جناته لقد مات وهو محرمٌ وإن شاء الله سيأتي يوم القيامة ملبيًا فادعوا له بالرحمة. الآن أصبحَ مجاهدٌ رجلَ البيتِ، هُوَ المسؤولُ عنا، علينا أن نسمعَ كلامَهُ، وعليهِ أنْ يحسنَ معاملتنا كما كانَ والدُكم يفعلُ.

شعرَ مجاهدٌ أنَّهُ أصبحَ رجلاً على الرغم من حداثةِ سنِّهِ، صارَ يحنو على أمه وإخوتهِ الصغار، كان يذهبُ كل يومٍ مبكرًا إلى قلعةِ دمشقَ ويقفُ جانب أحد أبوابها ويملأ وعاءه بالحليب من الميزاب[1] الذي أوقفَهُ[2] صلاحُ الدينِ على أطفال المسلمينَ الفقراءِ، ويعود بهِ إلى البيتِ ليشربَ منهُ إخوتُه الصغارُ، ثمَّ يذهبُ إلى محلِ أبيهِ في سوقِ العطارينَ يبيعُ ويشتري، كما كان أبوهُ يفعلُ.

(١) الميزابُ: أو المزراب: مجرى السوائل من السطح إلى الأرض.

(٢) أوقفه: جعله في سبيل الله.

وظلَّ على هذه الحالِ أيامًا وشهورًا وفي كلِّ يومٍ يزدادُ خبرةً في عمله؛ فأحبَّهُ جيرانُه وزبائنُهُ حبًا كبيرًا.

لم ينسَ مجاهدٌ تجاربَهُ العلميةَ فكانَ في كلِّ يومِ جمعةٍ يخرجُ بعد الصلاة إلى أطرفِ الغوطةِ ويُجْرِي بعض تجاربه، كما كانَ يترددُ على بعضِ المكتباتِ لينسخَ منها بعضَ الكتبِ العلميةِ.

كان في بعضِ الأحايين يذهبُ إلى المشفى النوري – الذي بناهُ السلطانُ نور الدين محمود الشهيد من مالٍ أخذه فديةً من أحد ملوك الفرنج[1] ليساعدَ الأطباء والصيادلة في تحضير بعضِ الأدوية فكانوا يسرُّون بقدومه ويستفيدونَ من خبرته.

تابعَ مجاهدٌ باهتمامٍ الأنباءَ التي وردتْ إلى دمشقَ وبشَّرت المسلمينَ بانتصار صلاح الدين على الصليبين في معركة حطينِ عامَ ٥٨٣ ففرِحَ فرحًا عظيمًا وازداد فرحُه يومَ علمَ أن صلاحَ الدين الأيوبي قام بقتل الأميرِ أرناطَ بيدهِ وكان قد عفا عن بقيةِ الأمُراءِ، لكنهُ تمنى لو أنهُ هو الذي قطَّ رأسهَ عبرةً لمن تسول له نفسُه التطاولَ على نَبيِّ المسلمين ومقدساتهم.

ذهبَ إلى بيتهِ يزف البشرى لأمِّهِ وإخوتِه، ففرحوا فرحًا شديدًا ودعوا

(١) الفرنج: قومٌ من النصارى.

لشهداءِ المسلمينَ بالرحمةِ والمغفرةِ.

وظل يتابع أخبارَ المسلمينَ كلَّ يوم ونفسه تتوق[1] للجهاد في سبيل الله، وكمْ تمنى أنْ يكونَ جنديًا في جيشِ صلاحِ الدين الذي طارتْ سمعتهُ في الأنامِ، والأفاق كانت القوافلُ في كل مرة تأتي بأخبارٍ جديدةٍ عن انتصارهِ على الصليبين في القلاع والحصون.

وبعدَ أشهر قليلة جاءَه الخبرُ المفرحُ.. لقد تحررت القدسُ وعادَ المسجدُ الأقصى يصدحُ بالأذانِ في عنان السماء بعد ثمانين عامًا من الاحتلالِ بعد أن كان اصطبلاً لخيولِ الصليبين.

وعادت المساجدُ الأخرى في القدسِ وعادَ المسلمونُ إلى ديارهمْ فرحين وخرجَ الصليبيونَ بعد أنْ أدوا الجزيةَ وهم صاغرونَ[2] وغنمَ المسلمونَ منهم صليبهم الذي رفعوه مدة من الزمن فوقَ المسجدِ الأقصى وسموهُ «صليبُ الصلبوتِ» وسمحَ لهم صلاحُ الدينِ بحمل ما يشاؤون من متاعهم، فعاد أكثرهم من حيث أتوا وفرَّ بعضُهم إلى الحصونِ المنيعةِ، واستقرَّ قليلٌ منهمْ في بعضِ مدنِ الساحلِ وخاصة في عكا معاهدينَ مسالمينَ.

---

(١) تتوق: اشتاق.

(٢) صاغرون: أذلاء.

كانَ لهذه الأنباء الأثر الطيبُ في نفوس المسلمين الذين عرفوا حلاوة الجهادِ ففرحوا ودعوا الله بتخليص البلادِ ممن تبقى من الصليبين.

شاهد عابدٌ المنبر الذي كان نور الدين قد أمرَ ببنائه في حلبَ إذ مرَّ بدمشقَ في موكب مهيب فتدافعَ المسلمونَ لرؤيته فدعوا لصلاح الدين والمسلمينَ بالنصر على أعدائِهم، وتابع الموكبُ سيره في طريقه إلى القدس.

رجعَ مجاهد إلى بيتهِ يحدث أمَّهُ وإخوتَهُ عنَ المنبر وعظمته وبراعةِ صناعته وعن الذي أمرَ بصناعته فدعوا لهُ بالرحمة والمغفرةِ، بعد أيام وصل المنبر إلى القدس ومن فوقه خطبَ صلاحُ الدين خطبةً أعادتِ القوةَ والعزةَ للمسلمينَ طلبَ مجاهدٌ منْ أمهِ أن تسمحَ له باللحاقِ بالمجاهدينَ، فقالتْ لهُ: مازلتَ صغيراً يا بني وأنت مسؤول عن أسرةٍ، والآنَ هدأتِ الحروبُ وهربَ أكثرُ الصليبينَ إلى بلادِهمْ.

اشتدَّ جنون الفرنجِ وساءَهم تحريرُ القدسِ، وطردُ الصليبين منها، فقامَ رهبانهم وقساوستهم وفرسانهم في أوروبا بلبسِ السوادِ، والطواف في بلادِهم يستنجدونَ أهلها ويستجيرون بهمْ، ويحثونهمْ على الأخذِ بثأرِ بيتِ المقدسِ وقاموا برسم المسيح عليه السلام، وجعلوا عربياً يضربه ونثروا الدماءَ على الصورةِ وقالوا لأتباعهم:

هذا المسيحُ يضربُه محمدٌ نبيُّ المسلمينَ وقد جرحَهُ وقتلَه!!

عظمَ ذلكَ على الفرنج وحَشدوُا الحشود حتى النساءَ خرجن معهم وجمعُوا الأموالَ العظيمةَ ونفروُا من بلدانٍ كثيرةٍ، قاصدينَ سواحلَ الشامِ..

ها هي مراكبهم العظيمةُ ترسوُ قبالةَ ساحلِ عكَّا، تحملُ الآلافَ من المقاتلينَ والفرسانِ والسلاحِ والعتادِ.

وقد ساعدهم في الوصولِ إليها مَنْ بقي من الصليبينَ فيها، وقاموا باحتلالِ جزءٍ في البلدِ، فقويتْ شوكتُهُم

كانَ صلاحُ الدين يتابعُ فتوحاتِهِ في بعضِ البلدانِ، ولما جاءَهُ الخبرُ، سارعَ معَ جنودهِ إلى عكَّا حتى قاربهم، ولما رأى كثرتهم وعتادَهم أرسلَ الكتب إلى البلدان القريبةِ منهُ يستفزهم[1] مقارعةَ أعداءِ الله.

وصلتِ الكتبُ إلى دمشقَ وحمصَ والقدسِ وبغدادَ ومكةَ والموصلِ وغيرها من بلاد المسلمين.

ولما صل الكتابُ إلى دمشقَ، وقُرئَ في المساجِد، وسَمع مجاهدٌ الإمام يقولُ: منْ كانت لديهِ القدرةُ على مقارعةِ الصليبينَ فليذهبْ إلى عكَّا لمساعدةِ المسلمين.

(١) يستفزهم: يحثهم.

انطلق مجاهدٌ إلى بيته فقد عَزَمَ على الرحيلِ إلى عكَّا، استأذن أمَّهُ، فحاولتْ منعَهُ قائلةً لهُ:

يا بنيَّ لم تبلغْ مبلغَ الرجالِ بعد وتنقصكَ الخبرةُ في القتالِ، وأنتَ رجلُ البيتِ، وليسَ لنا بعدَ، اللهِ إلا أنتَ.

- ونِعْمَ باللهِ يا أمي، قلْ لنْ يصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنَا، الجهادُ فرض عين على كلٌ قادر، وأنا يا أُمي صرتُ قادراً على الجهادِ، سأثأرُ لأبي ولجميع المسلمين.

- سرْ يا بنيَّ على بركةِ اللهِ، سادعوُ لكَ ولإخوانكِ المسلمينَ.

وما كادت أم مجاهدِ تنهي كلامها إلا غلبها البكاءُ، فأقبل مجاهدٌ نحوَها فضمتهُ إلى صدرِها ومسحتْ بيدِها على رأسهِ وقالت: باركَ اللهُ فيكَ يا بنيَّ، ونصرك على أعداء المسلمين.

خرجَ مجاهدٌ منْ منزلهِ وانطلقَ مع مجموعةٍ من أبناء حيِّهِ قاصدين عكَّا وبعد أيامٍ وصلوُا إلى أسوارِها الشامخةِ، ورابطوا هناكَ مع المجاهدين الصابرين. حاولَ مجاهدٌ أنْ يكونَ في مقدمةِ المجاهدينَ لكنَّهُ لم يستطعْ فقد طلبَ منهُ أحدُ القادةِ أنْ يكونَ في مؤخرةِ الجيشِ ليقومَ بمساعدةِ المجاهدينَ وتقديم الخدمات لهم، فوافقَ على ذلكَ، إلا أنهُ كانَ متشوقًا إلى مقارعة أعداءِ اللهِ.

كانت الإمداداتُ الكثيفةُ تصلُ للصليبينَ من البحر كلّ يومٍ، وتمكنوا من تشديد الحصار على عكا من البحر إلى البحر وشرعوا في حفر الخندقِ العظيم، وعملوا سوراً من الترابِ الذي أخرجوه من الخندقِ ليتحصنوا به منَ المسلمين.

كانَ صلاحُ الدينِ مشغولاً بقتالِ جحافلهم[1] في الطرفِ الآخرَ من المدينة، وظلت المناوشات بين الطرفين أيامًا عديدةً، طلبَ من بعض الجنودِ الأقوياءِ التسللَ إلى عكا لمساعدة الجيش المرابطِ هناك ومساعدةِ الأهالي الصابرين.

أصرَّ مجاهدٌ على الانحراطِ في صفوف الفدائيين الذي سيقتحمون المدينة، ولم تكن العمليةُ سهلةً فرماحُ الصليبين لم تتوقف طلية النهار، وهم يتترسون[2] بالتلالِ الترابيةِ.

وبعون الله تمكنت مجموعةٌ من الأبطال الاقترابَ من أسوارِ عكا والدخولِ منْ أحد أبوابها في جنح الليل وكانَ بينهم مجاهدٌ.

وهناك التقوا معَ القائدِ قراقوشَ الذي فرحَ بمقدمهمْ واستبشر خيراً.

(١) الجحافل: الجيوش الكثيرة.

(٢) يتترسون بالتلال: يتخذونها واقيًا لهم.

حاولَ مجاهدٌ أن يجدَ لهُ مكانًا بارزًا بين المجاهدين لكنَّ القائد طلبَ منه أن يبقى في مؤخرةِ الجيشِ أيضًا رثيما يتدربُ على القتالِ أكثر، فمازال عوده طريًا.

انسحبَ صلاحُ الدين إلى حِصْن الخروبة القريبِ من عكًا؛ خوفًا من انتشار الطاعون بين جنوده وظنَّ أنَّ قوةَ المسلمينَ في المدينة تكفي لدحرِ الصليبينَ وإرغامهم على مغادرة البلاد.

وما إنْ علمَ الصليبيونَ برحيل صلاحِ الدين، حتىً فرِحُوا كثيرًا، وقاموا بالاستعداداتِ الكثيفة لمنازلةِ المسلمينَ، وكانت الإمداداتُ الكثيرةُ تصلهم كلَّ يومٍ ومئات المقاتلينَ يرفدونهمْ[1] وكانتِ المناوشاتُ بين الطرفينِ تدومُ طيلةَ النهارَ...

ولكنْ حدثَ أمرٌ جللٌ أرَّق المسلمين كثيرًا.

لقد جلبَ الصليبيونَ ثلاثةَ أبراج من الخشبِ عالية جدًا، طولُ كلٌ برجٍ ستونَ ذراعًا وعملوًا في كلٌ برج منها خمسَ طبقاتٍ، وقد اختاروا لهذهِ الأبراج أجودَ أنواع الخشبِ الذي جمعُوه منَ الجزائر حينما مرّوا منها. انتشر جنود الصليبين على طبقات هذه الأبراج وصاروا يرمون مواقع المسلمين

(١) يرفدونهم: يساعدونهم ويدعمونهم.

بنبالهم ونيرانهم. حاولَ المسلمونَ قذفَ هذهِ الأبراجِ بالنيرانَ الملتهبة ولكنهمْ فوجئوا أنَّ النيرانَ لا تؤثرُ فيها أيَّ تأثيرٍ، وحاولُوا وحاولوا لكنهمْ لمْ يفلحوا، كانتْ هذه الأبراجُ في كلِّ يومٍ تتقدمُ قليلاً إلى مواقع المسلمينَ مما ينذرُ ذلكَ بالخطر.

علمَ المسلمونَ سر هذهِ الأبراجِ، فقد قام الصليبيونَ بتغطيتها بالجلود السميكةِ، والخلِّ، والطينِ والأدوية التي تمنعُ النارَ من إحراقها. لم يعد حديثُ أهلِ عكّا في هذه الأيام الحرجةِ إلاّ عنْ هذهِ الأبراجِ اللعينةِ التي كادتْ أن تُسقطَ المدينةَ.

فرحَ الصليبيونَ بأبراجهم العملاقة، وقاموُا بصنع المزيد منها، ونشرها على خطوط المواجهةِ لترمي المسلمينَ بالنيران والحجارةِ، وفعلاً أضرَّت بالكثير منَ المجاهدين وبأهل عكّا رجالِها ونسائِها وشيوخِها وأطفالِها..

أرسلَ قراقوش رجلاً سبح في البحر إلى صلاحِ الدينِ ليعلمهُ الأمر. وما أن وصله الخبر حتى ركبَ هُوَ وعساكرُه وتقدموا إلى الفرنجِ، وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيمًا؛ ليشغلوهمْ عن قتلِ الأهالي في عكا ودامَ القتالُ ثمانية أيام متواصلةِ، ولكنّ الأبراج كادتْ أنْ تحسمَ المعركة في هذهِ المرة لصالح الصليبين، لأن نيرانها أطالتْ جندَ صلاحِ الدين...

يئسَ المسلمونَ منْ مقارعةِ الصليبين وأبراجهِم التي فوجئوا بقوتِها، وقدْ عجزوا عن المقاومة لم يتركوا حيلةً إلا وعملوُها فلم يفد ذلكَ ولم يغنِ عنهم شيئًا، وتابعوا رميَ النفطِ الطيارِ عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاكِ..

في خضمِ الليلِ اجتمعَ القادةُ مع قراقوش يتدارسونَ أمرَ الانسحابِ منْ عكًا أوْ محاولةِ الإجهاز على الأبراجِ، وكادَ القومُ يتفقونَ على الانسحابِ وترك عكًا كلّها للصليبين، عندَ ذلكِ كانَ قراقوش في همٍّ وغيظِ تبدو قسماتُ الحزنِ على وجههِ، كانَ يفكرُ كيفَ يترُكُ عكًا للصليبين؟، لقد أوشكتْ هذهِ الأبراجُ أن تحسمَ المعركةَ لصالحِ الصليبيين!!

عندَ ذلكَ دخلَ الحاجبُ مقر القيادةِ وأخبر قراقوشَ أنَّ هناكَ شابًا مِنْ دمشقَ بالبابِ يريدُ مقابلته لأمرٍ هامٍ.

أمر قراقوشُ الشاب بالدخولِ.

دخلَ مجاهد إلى مقرِ القيادةِ ورأىَ الوجومَ في وجوهِ قراقوش وقوادهِ عندها سألهُ قراقوشُ:

ماذا تريدُ أيُّها الفتى؟

– أنا جئت من دمشق للمشاركةِ في هذه الحروبِ.

– وماذا تفيدُنا الآن؟

كنتُ أعملُ في دمشقَ بالأدويةِ والعقاقيرِ وأحضّرُ السوائلَ التي تزيدُ اشتعالَ النارِ، وقد قمتُ بتحضيرِ بعضِ السوائلِ علَّهَا تنفعكمْ في إحراقِ الأبراجِ التي أهلكتِ الحرثَ والنسلَ.

– لم نتركْ وسيلةً إلا استخدمناها، ولم نتركْ عقارًا إلا جربناهُ، وعندنا الخبراءُ في ذلكَ وقد عجزوا ولم يفلحُوا، اذهبْ، باركَ اللهُ فيكَ.

قال بعض الحاضرينَ. لعلَّ الله تعالى قد جعلَ الفرجَ على يدِ هذا ولا يضرُنا أنْ توافقَهُ على قولهِ.

قال قراقوشُ: لابأس، وأمرَ المنجنيقيَّ بامتثال أمره.

في صباح اليوم التالي أحضرَ مجاهدٌ القدورُ التي ركَّبَ فيْها الموادَّ السائلةَ وطلبَ منَ المنجنيقي يرميها على الأبراجِ دونَ أنْ يشعلَ النارَ فيها.

امتثلَ المنجيقي لأمرِ مجاهد وصار يرمي الأبراجَ بالقدور.

وكانَ جنودُ الصليبين إذا رأوا القدور لا تحرقُ شيئًا يصيحونَ ويرقصونَ، ويلعبونَ على سطحِ البرجِ. وهم لا يبالونَ بما يُلقى عليهمْ.

عندما أيقن مجاهدٌ أنَّ الذي أُلقيَ على الأبراج قدْ تمكنَ منْهُ واختلطَ بالجلدِ والطينِ والأخشابِ أمرَ المنجنيقي أنْ يلقيَ على البرجِ الأولِ قدراً مملوءةً وجعلَ فيها النار، فما أنْ وصلت النيرانُ على البرجِ الأول حتىً اضطرمتْ في نواحيه وامتد لهيبُها إلى الطبقات الخمسة، فهلك أكثرُ منْ فيها، وصارَ من بقي منهم يستغيثُ ويصرخُ ولكن لا فائدة من صراخهم، فالنارُ الملتهبةُ ستنالهمْ بعدَ قليلٍ.

وما أنْ رأىَ الجنود النارَ في البرجِ الأولِ حتى كبَّروا وحمدوا الله وطلبُوا من المنجنيقَي الإسراع في رمي الأبراج كلِّها فرماها واشتعلت النيرانُ بجميعها، فكان يومًا مشهوداً لم يرَ الناسُ مثلَهُ. وقدْ اسفرت وجوهُهم بعدَ الكآبةِ بالفرح والسرور وأخذوا يلهجونَ بالدعاءِ إلى الله سبحانه وتعالى الذي منَّ عليهم بالنصرِ العظيم.

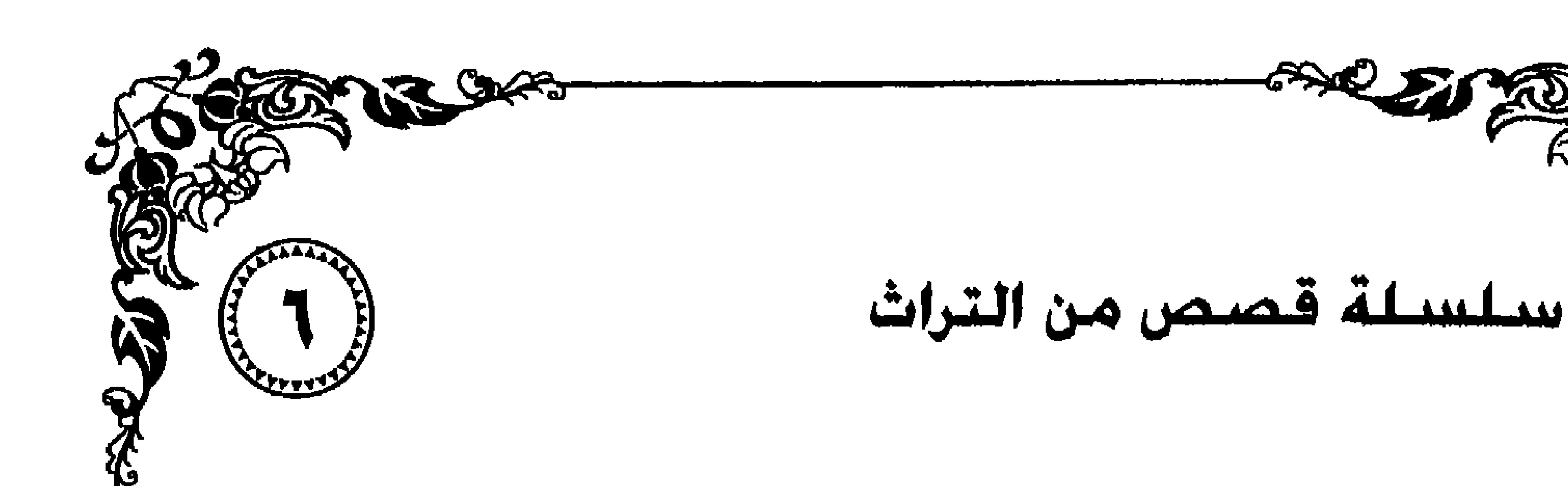
وأسرعوا إلى مجاهدٍ يقدمون له الشكر الجزيل.

سُرَّ قراقوشُ مما فعلهُ مجاهدٌ سروراً عظيمًا وخرَّ لله شاكِرًا ورفع يديهِ بالدعاءِ للفتى وللمسلمينَ.

وحُمل مجاهدٌ إلى صلاحِ الدينِ الذي استقبلَهُ استقبالَ الأبطالِ الفاتحينَ، فبذلَ لهُ الأموالَ الجزيلةَ والاقطاعَ الكثيرةَ فلمْ يقبلْ منْهَا شيئًا وقالَ: إن الذي

عملتهُ للهِ تعالىَ، ولا أريدُ الجزاءَ إلا منهُ.

أُعجب صلاحُ الدين من هذا الفتى الشجاع القوي التقي، وكم تمنى أن يكونَ شبابُ المسلمين مثلَهُ.



سلسلة قصص من التراث (٦)

الرجل الصالح والسحابة

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

الرجل الصالح والسحابة .- الرياض.

١٤ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٥ - ٩٨٦ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٤

ردمك: ٥- ٩٨٦ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٤

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

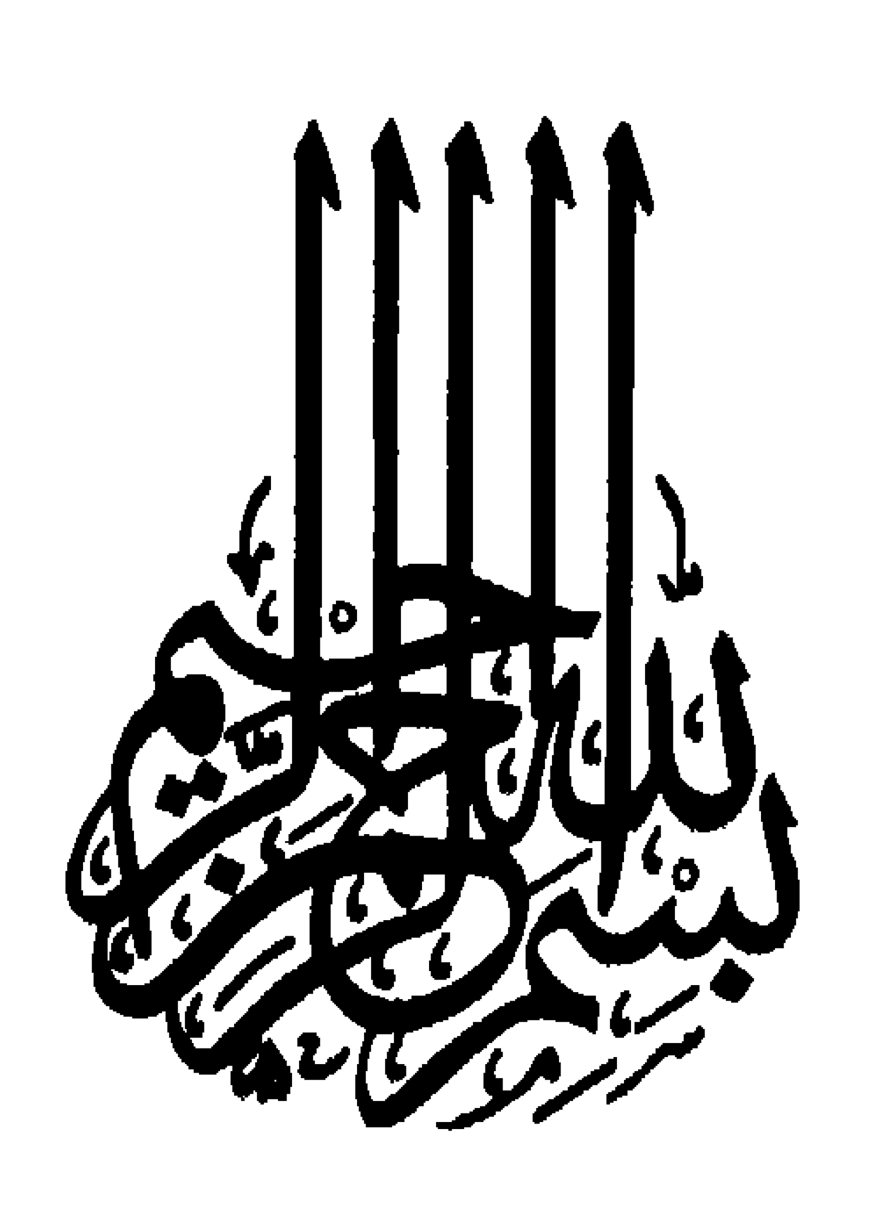
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



يُحْكَيَ أنَّ رجلاً في قومِ موسى عليه السلامُ كانَ منَ العبَّاد الموصوفينَ بالزهد، كانَ كثير الصلاةِ والصيامِ والزكاةِ والقيامِ، لا يكلُّ ولا يملُّ، محبًا لعبادِ اللهِ، يسعى إلى تفريجِ كربهمْ بالدعاء تارةً، وبتقديم ما يملكُ تارةً أخرى.

كانَ مستجابَ الدعاءِ، صائب الرؤية، لا يحدثُ صادقٌ إلاَّ ما فيه منفعةٌ للناسِ. وقد سخرَّ اللهُ سبحانه وتعالى لهُ سحابة تسيرُ معهُ حيثُ يسيرُ، تقيه وَقْدَةَ القيظِ، ولهيبَ الصيفِ.

وظل على ذلك مدةً من الزمن حتى عرفه الناس بذلك، وكان حديثَهم في زهده وتقواه ونسكه اعتراهُ فتورٌ في عبادتِه، فركَنَ إلى بعضِ زخارفِ الدنيا وبهجتها، فازال اللهُ عنهُ سحابته، وحجب إجابتَهُ..

فكثرَ حزنُهُ وشجونُهُ وطالَ همُّهُ وندمَ على فتورِه وركونه إلى الدنيا، وصارَ يبكي ويتأسفُ ويتحسرُ ويتلهف.

نامَ ليلةً من الليالي ومضت أيامٌ وأسابيعُ وهو على هذه الحال، فتوضأ وصلّى ما شاء اللهُ، واستغفر ربَّه وبكى وتضرعَ ودعا الله بقلبٍ خاشعٍ ودمعٍ حارٍ، ونامَ وَهُوَ مطمئنُ البالِ وأحسَّ أنَّ الله قد رضيَ عنهُ.

رأى في المنامِ رؤيا صالحةً: قيلَ لَهُ: إذا أردتَ أن يرُدَّ اللهُ تعالى عليكَ

سحابتكَ، فاذهبْ إلى الملك الفلاني في بلدِ كذا، واسْألهُ أنْ يدعو اللهَ لكَ أن يردَّ عليكَ سحابتكَ.

صَحَا مِنْ نَوْمِهِ فرِحًا مستبشرًا، عادَ إليهِ التفاؤلُ والسرورُ وبدتْ عليهِ علاماتُ الحُبور والرضى.

لم يتأخرْ عنَ الملكِ، قام إليه مسرعًا يقطعُ الأرض والفيافي، والوديانَ والجبالَ لا يكلُّ ولا يتعبُ، وما إنْ وصلَ إلى تلكَ البلد التي ذُكرتْ لهُ في المنامِ حتى أحسَّ بالراحةِ والسرور، فسألَ أول رجل رآه عن قصر الملكِ، فأرشدَهُ إليهِ، فشكَره على حسنِ صنيعهِ، وانصرفَ إلى القصرِ.

ولمَّا وصلَ هناك رأى عند باب القصر غلامًا جالسًا على كرسيٍّ عظيمٍ من الذهبِ الأحمرِ، مرصعٍ بالدُّرِ والجوهرِ، والناسُ بين يديهِ يسألونَهُ حوائجهمْ، والغلام يصرفُ بعضَ الناسِ، ويقضيْ حوائجَ بعضهمْ.

انتظرَ الرجُل الصالحُ المجلسَ حتَّى انفضَّ[1]، فاقتربَ من الغلامِ وسلَّمَ علَيهِ.

فقال له الغلام: منْ أينَ أتيْتَ؟

– من بلادٍ بعيدةٍ.

– وما حاجَتُكَ؟

---

(١) انفضَّ: انتهى.

– أريدُ الاجتماعَ بالملكِ.

– لا سبيلَ لك اليومَ، فسلْ حاجتك أقضِها لكَ إن استطعتُ.

– إن حاجتي لا يقضيها إلا الملكُ.

إنّ الملكَ ليسَ لهُ إلا يومٌ واحدٌ هو يوم الجمعة الذي يجتمعُ إليهِ الناسُ فيه فاذهبْ حتى يأتي يومُ الجمعةِ

سمعًا وطاعةً.

إنْ لم تعرفْ أحداً هنا لتنزلَ عندَهُ، فأهلاً بكَ في بيتي ضيفًا حتى يحينَ يومُ الجمعةِ.

أشكركَ على معروفكِ، وباركَ اللهُ فيكَ.

خرج الرجلُ الصالحُ من القصر، وتوجَه إلى طرفِ المدينةِ فوجَد مسجداً قديمًا مهجوراً، فأقام فيه يعبد الله عزَّ وجل فأكثر من صلاتهِ وقيامهِ، وصام الأيامَ التي كانَ ينتظر رحيلها بفارغِ الصبرِ.

حدثتهُ نفسُه عنْ هذا الملكِ الذيْ يحتجبُ عن الناسِ وأنكرَ عليه ذلكَ، وصارَ يشكُّ في رؤيتهِ التي رآها في نومهِ ويقول: لعلّها أضغاثُ أحلامٍ[1]!!

(١) أضغاث أحلام: ما كان ملتبسًا مختلطًا لا يصحُّ تأويلُهُ.

ولّما كانَ يومُ الجمعةِ خرجَ من المسجدِ متوجهًا إلى قصر الملكَ ولما اقترب منه رأى خلقًا كثيراً عندَ البابِ ينتظرونَ الإذنَ بالدخولِ، فوقفَ معَ النَّاسِ.

خرجَ الوزيرُ وأذنَ للناسِ في الدخولِ، فدخلوا ودخلَ معهم وإذا بالملك جالسٌ وبين يديه أربابُ دَوْلته منْ وزراء وقوادٍ، ومستشارينَ، وحرّاس.

وقفَ حاجبُ الملكِ يقدمُ أصحابَ الحوائجِ واحداً بعدَ واحدٍ، حتى وصلَ الدورُ للرجلِ الصالحِ.

تقدمَ إلى الملكَ فلما نظرَ إليه قالَ: مرحبًا بصاحبِ السحابةِ!!

اجلسْ حتى أفرغَ منْ حوائجِ النَّاسِ، وأنظر في أمركَ.

رجعَ الرجلُ الصالحُ إلى مكانه وَهُوَ مشدوهُ البالِ، حائر متحيّرٌ من أمره فلمَّا فرغَ الملكُ منْ قضاءِ حوائجِ النَّاسِ قام منْ مجلسهِ وأمرَ بانفضاضِ الجلسةِ، فغادرت حاشيته المكانَ ولم يبقَ إلا هُوَ والرجلُ الصالحُ في المجلسِ.

رحب به ترحيبًا يليق بالملوك والوزراء، والأعيان، وسأله عن حاله وأحواله.

أخذَ بيدهِ وأدخلَهَ مَعهَ إلى قصرِه، ثمَّ مشى بهِ في دهليزِ القصرِ.

ذُهِلَ صاحبُ السحابةِ فيما يراهَ، وصارَ يفكرُ في أمرِ هذا الملكِ، وفي المكانِ الذي سيأخذهُ إليهِ.

سار بهِ حتَّى انتهى إلى بابٍ مصنوعٍ من سَعَفِ النخلِ[1] فدخلا منه، رفعَ الرجلُ الصالحُ رأسَهُ فرأى أمامَهَ بناءً قديمًا باليًا وجُدُرًا متصدعةً، وبيتًا خربًا فدخلَ الملكُ هذا البيتَ ودخلَ معهُ الرجلُ الصالحُ.

أجالَ الرجلُ الصالح بصرَه في هذا البيت الحقير، ولم يدرِ الأمرُ، ولِمَ جاءَ به الملك إلى هنا؟

واستغرب أكثر حينما نظرَ إلى زوايا البيت لمْ يجدْ إلا حصيرةً رثةً، وسجَّادةً باليةً، وإناءً للوضوءِ، وبعضَ السلالِ الفارغة وشيئًا من الخوص[2]

استأذن الملك ضيفه ودخل غرفة أخرى، انتظر الرجل الصالح رجوع الملك، وبعد قليل رأى أمامه رجلاً آخر، يلبس ثوبًا مُرَقعًا من صوف، معتمرًا قلنسوة[3] من شعر، عليه علامات الفقرِ والحرمان. وبعد قليل سأله: أين الملك؟ لقد تأخر.

ضحك الرجل الذي أمامه وقال له: أنا الملك: تعالَ واجلس إلى جانبي.

ذُهِلَ الرجلُ الصالحُ منْ هذا الملكِ، وكيفَ صارَ بعدَ أن غيرَّ شكلَّهُ.

---

(1) سَعَف النخل: أوراق النخل.

(2) الخوص: ورق النخل.

(3) معتمرًا قلنسوة: وضعًا على رأسه قبعة.

أيعقلُ أنْ يكونَ هذا الملكُ الذيْ كانَ يجلسُ بينَ حاشيتهِ ويقضي حوائج الناسِ وهو في أحلى حلةٍ وأروع زينةٍ؟.

ما الذيْ أصابَهُ؟..

ولما رأى الملكُ دهشةَ صاحبِ السحابةِ توجَه إليهِ قائلاً: يا أخيِ، هلْ تحبٌّ أنْ نطلعكَ على حالِنا؟ أمٌّ نقضيَ حاجتكَ وتنصرف؟

- واللهِ لقد شغلني حالُك أيُّها الملك، وكدت أنسى الذيْ جئتُ من أجلهِ.

- أو تحبُ أنْ تسمع قصتي كلَّها؟

- بكلِ تأكيدٍ إذا أردتَ ذلك.

- والله لا يدريْ بقصتي إلاّ اللهُ ثمّ زوجتي وغلامي

- تفضلْ أيها الملك فأنا مشتاق لسماع قصتك.

أخذَ الملكُ يروي قصته قائلاً:

لقد ورثتُ هذهِ المملكةَ عَنْ آبائي وأجدادي، وكانوا - يعلمُ اللهُ - صالحين عادلين، نشرُوا الأمنَ والعدلَ في ربوعِ البلادِ، لم يظلمُوا أحداً، ولم يعتدُوا.

فلما آلَ[١] الأمرُ إليَّ بعدَ موتِ والدي الذي ربَّاني عَلَى التدين، زهدتُ في الدُّنيا، فاعتزلتُ الناسَ، وطلبتُ منهمْ أن يختارُوا ملكًا غيري.

فجاءَ وجُوهُ القومِ[٢] عندي راجينَ مني ألاَّ اعتزلَ، وخافُوا منَ ملكٍ يتسلطُ عليهمْ، وبعدَ رجائِهم وافقتُ علىَ ذلكَ فأنني خفتُ عليهمْ منَ الفتنةِ، وتضييع الدِّينِ، والشرائعِ. فبايعوني وأنا واللهِ كارهٌ، فتركتُ أمورهم على ما كانتْ عليهِ وجعلتُ القصرَ على عادتهِ، والحراسَ على حالِها، والمماليكَ على دأبها[٣]، ولمْ أغيِّر شيئًا، وأقعدتُ الحراسَ على الأبوابِ بالسلاحِ؛ إرهابًا لأهلِ الفسادِ والشرورِ وحمايةً لأهل الخير، وتركتُ القصر مزينًا على حالِهِ، ولكنني فتحتُ لهُ بابًا وهُوَ الذيْ رأيتَهُ يوصلني إلى هذا الكوخِ القديمِ، فأدخلُ فيهِ وأنزعُ ثيابَ الملكِ وألبسُ هذا وأقعدُ في هذهِ الزاوية أصلي وأدعُو اللهَ سبحانَه وتعالىَ، وفي وقتِ فراغي أعملُ في هذا الخوصِ فأصنعُ السلاَل وأرسلُها مع غلامي إلى السوقِ ليبيعها ويشتري لي ولزوجتي طعامًا نقتاتُ[٤] منهُ، وقد زهدت زوجتي كذلكَ في الدنيا كزهدي، واجتهدتْ في العبادةِ مثلي بلْ أكثرَ منيٌّ، وهي الآن جالسة في تلك الغرفةِ الصغيرةِ.

---

(١) آل: وصل

(٢) : وجوه القوم: ساداتهم وأعيانهم وأشرافهم.

(٣) دأبها: عادتها.

(٤) نقتات: نأكل ما يقوم به بدننا.

والناسُ لا يعلمونَ ما نحنُ فيهِ ويظنونَ أنِّي أعيشُ معَ زوجتي في رغدٍ من العيشِ في القصرِ!!

ثمْ إني أقمتُ لي نائبا يجلسُ في القصرِ طيلةَ الأسبوعِ ليقضيَ جوائجَ الناسِ، ولكني خشيتُ أنْ يظلمَ أحدًا أوْ أنْ يطغى[1] في غيابي، فجعلتُ يومًا في الجمعة أبرزُ للناسِ فيهِ، وأكشفُ مظالمهم كما رأيت، وأطَّلعُ على أحوالِهم. وأنا على هذهِ الحالةِ مدَّةً!

فاطمأنتْ نفسي إلى سيرِ العدلِ في أنحاءِ البلادِ، وعلمتُ أنَّ حاشيةَ القصرِ كلها تتوخى العدلَ في معاملةِ الناسِ، خوفًا من عقابي.

أيّها الرجلُ الصالحُ هذهِ حالتي. ولا أحبُ أنْ يطلعَ عليها أحدٌ منَ الناس والله لو لم تكنْ صاحبَ كرامةٍ لَماَ أخبرتُكَ.. واعذرني لأني إلى الآنَ لم أقم بحقِ الضيافةِ تجاهَك، فأنتَ ضيفي والضيفُ ضيفُ اللهِ والواجبُ إكرامُهُ، وهذهِ سنةُ أبينا إبراهيمَ عليه السلام، الذيْ لم يخلُ بيتهُ من ضيفٍ طيلة حياتِه، وهُوَ أوّل من سنَّ القِرى[2]، ولنا فيه أسوةٌ سنةٌ، ولكنْ عليكَ أن تنتظرَ حتى غروبِ الشَّمسِ لنتناولَ الطعامَ سويةً وتبيتَ عندنا الليلةَ ثم

(١) يطغى: يتجاوز الحد ويسرف في الظلم.

(٢) القرى: ما يقدم إلى الضيف من طعام

تنصرفَ إلى بلدتِك إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فلما كانَ آخر النهارِ، ومالتِ الشَّمسُ إلى الغروبِ، دخلَ عليه غلامُهُ، فأخذَ ما عمَلَهُ منَ السلال وسار بها إلى السُّوقِ فَبَاعَهُ واشتَرى مِنْ ثمنِه خُبزًا وفولاً واشترى بباقي ثمنِه خوصًا وقشًا؛ فعندَ الغروبِ حضر الغلامُ وأعطى الملكَ ما اشتراهُ. فمدَّ الملكُ الطعامَ على الحصيرِ وأحضر إبريقًا من الماءِ وطلبَ منَ الرجلِ الصالحِ وغلامهِ أنْ يتناولا الطعام معهُ.

بعد أن رفع قليلاً منه لزوجتهِ في الغرفة الأخرى.

صارَ الملكُ يخدمُ ضيفَهَ ويظهر له بَسطَ الوجهِ والبشاشةِ ويحادثه بأجمل الأحاديثِ ويصبُّ لهُ الماءَ ليشربَ، فلمَّا شبعوا حمدوا اللهِ وشكروه على نعمهِ التي لا تُحصَى.

ذهبَ الملكَ إلى فراشهِ، وطَلَبَ منْ ضيفه أنْ ينامَ على حصير خير من حصيره كان قد أعدهُ له، ولما كانَ نصفُ الليلِ قامَ الملكُ يصلي ويبكي ويتضرَّعُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى ولَمَّا كانَ وقتُ السَّحرِ قالَ الملكُ:

اللهمَّ، إنَّ عبدَك هذا يطلبُ منكَ ردَّ سحابتهِ وإنّكَ قدْ دللته علينا، اللهمَّ ارْدُدهَا إليه، إنَّكَ على كل شيءٍ قدير.

وظلَّ الملكُ يصلّي ويدعو حتىَّ طلعَ النهارُ، ولما انتهى قامَ وفتحَ بابهُ الخشبيَّ ونظرَ إلى السماءِ فقالَ: الحمدُ للهِ الذي استجابَ دعائي ثمَّ خاطبَ الرجلَ الصالحَ:

قمْ أيها العبدُ الصالحُ وانصرفْ إلى بلدتِك لكَ البشارةُ بقضاءِ حاجتكَ وتعجيلِ إجابتكَ.

قامَ الرجلُ فرحًا مستبشرًا وخرجَ من كوخِ الملكِ فودّعَهُ خير توديع ودعا له بطولِ العمرِ ونظرَ إلى السماءِ فإذا السحابةُ فَوقهُ تنتظره بالباب ومشىَ ومشتْ معه وعادتْ إليه كما كان وعاهَد ربَّه ألا يركنَ إلى الدُّنيا وزينتها وأن يظلَ كما كانَ عابداً مخلصًا لله في عبادتهِ.



٧

الهاربُ مِنْ والديهِ

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

الهارب من والديه .- الرياض.

١٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: X - ٩٨٩ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٧

ردمك: X- ٩٨٩ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٧

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

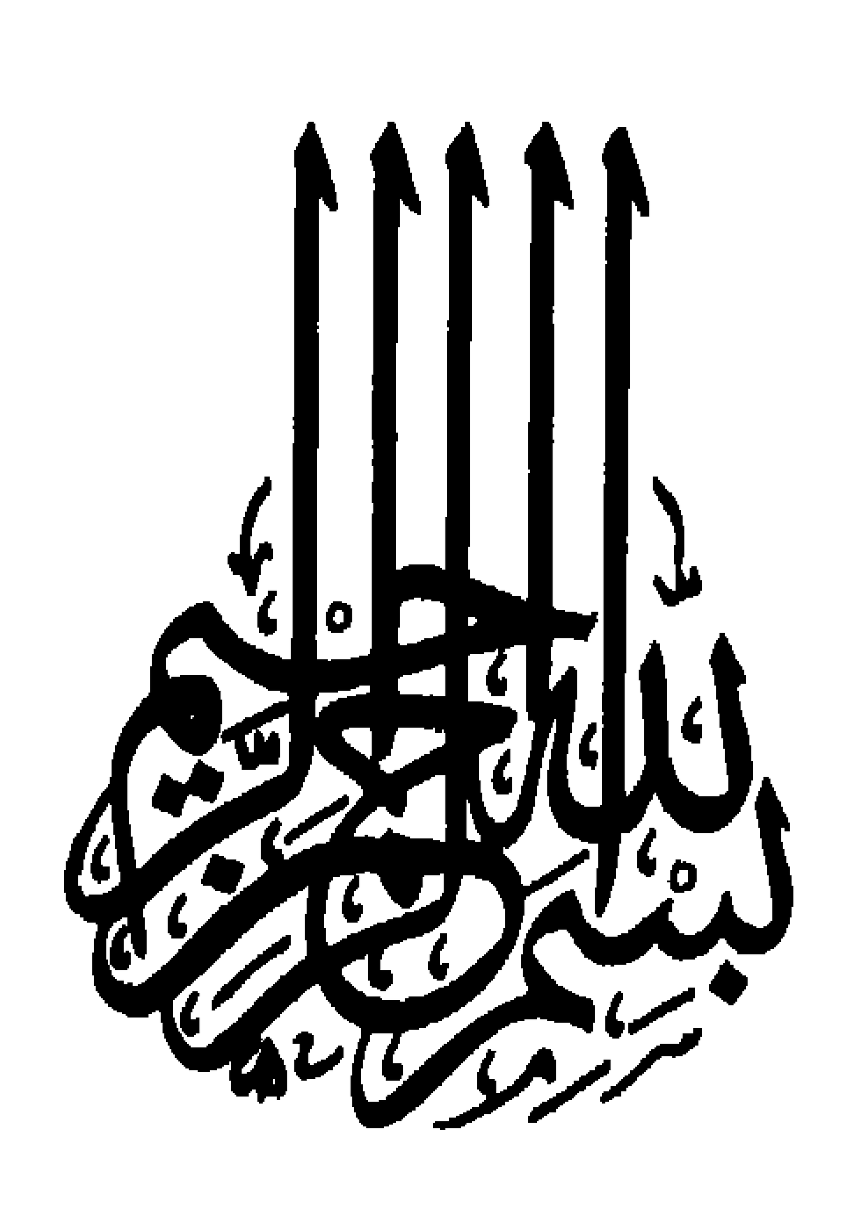
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَ بعضُ الفرسِ إلى الكرخِ في العراقِ بحثًا عنِ الرزقِ، وكانَ بعضُهمْ على دينِ النصرانيةِ، وعاشواْ بينَ المسلمينَ حياةً كريمةً لا يضرهمْ شيءٌ، ولمْ يجبرهمْ أحدٌ على اعتناقِ الإسلامِ ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وكانَ مِنْ هؤلاءِ النصارى فيروزُ وزوجتُهُ وابنُهُ الصغيرُ معروفٌ، وقدْ أحبَّا أنْ ينشأ ولدُهُمَا على حبِّ النصرانيةِ، فأخذَ يلقنانِهِ مبادئَ الدينِ وهُو لمْ يدرجْ بَعْدُ.

ولـمَّا بلغَ السابعةَ منْ عمرِهِ أحب والداه أنْ يتعلمَ القراءةَ والكتابةَ ودينَ النصرانيةِ فأرسلاهُ إلى مؤدّبٍ نصرانيٍّ افتتحَ مدرسةً لتعليمِ أبناءِ النصارى دينهمْ.

فرحَ المؤدبُ منْ معروفٍ لـمَّا رأى نجابتَهُ وذكاءَهُ، فقد أتقن مبادئَ القراءةِ والكتابةِ في وقتٍ يسيرٍ، فاقَ بها أقرانَهُ، كانَ يذهبُ كلَّ يومٍ إلى مدرستِهِ وكثيرًا ما كانَ يصلُ متأخرًا، فقدْ كانَ في طريقِهِ كتَّابٌ يعلمُ أبناءَ المسلمينَ القرآنَ الكريمَ.

كانَ معروفٌ يقف قربَ سورِ الكتَّابِ القصيرِ ويرى الشيخ في فنائه وهُوَ يعلمُ الأولادَ، وكانَ بعضُ الأولادِ أصدقاءه، وكثيرًا ما كان يصغي إلى الشيخِ وهُوَ يتلو القرآنَ الكريمَ ويسمعُ ما يرددُهُ الغلمانُ، وكانَ يحفظُ كلَّ يومٍ

بعضَ الآياتِ الكريمة، فقدْ حفظَ قولَهُ تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

كانَ في بعض الأحايينِ يلوِّحُ لأصدقائهِ ليحييْهمْ، وكانُوا يرفعونَ أيديَهم خلسةً منَ الشيخِ يردونَ عليه التحيةَ.

سَرَتْ آياتُ اللهِ في قلبِ معروفٍ، فغدا غلامًا ذكيًا، جريئًا في قولِ الحق.

وقدْ سببَ لهُ التأخيرُ متاعبَ جمةً منْ مؤدبه، فكثيراً ما كان يوبخهُ وينهرهُ، ولكنه لم يكن يعلم سبب تأخيره.

ذاتَ يومٍ أخذَ المؤدبُ يلقنُ معروفًا درسًا في الديانةِ النصرانيةِ تقدَّمَ منهُ وقالَ:

قلْ يا معروف: باسم الأب والابن والزوجة

– بسم اللهِ الرحمن الرحيمِ

– ماذا تقولُ يا غلامُ؟

– بسم الله الرحمنِ الرحيمِ

– منْ أينَ تعلمتَ هذا الكلامَ يا ولد؟

– تعلمتهُ من أصدقائي المسلمينَ

– يا غلامُ إنْ لمْ تقلعْ عنْ هذا سأخبرُ والدكَ

– هيًّا قل ثالثُ ثلاثةٍ وزوجه

– قلْ هُو اللهُ أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد

– هَلْ جُنِنْتَ يا ولد؟

– لا بلْ عَقَلْتُ، والحمدُ للهِ

امسكهُ المؤدبُ منْ تلابيبِ ثوبهِ ودفعَهُ وأخذ ينهالُ عليهِ بالسبِ والشتائمِ

ثم جرَّهُ بعيدًا عنِ الأولادِ حتَّى لا يتأثروا بهِ وانهالَ عليه ضربًا وهُوَ يقولُ لهَ: قلْ ثالثُ ثلاثة.

– لا إلهَ إلاَّ اللهُ.

– ماذا تقولُ يا غلامُ؟

– لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ

لم يصدق المؤدِّبُ ما يسمعهُ، رمى العصا على الأرضِ، وتركَ معروفًا يئنُ

من الوجعِ، وانطلقَ إلى بيت فيروزَ صديقهِ يخبرهُ بالخبر المروِّعِ.

ـ أينَ أنْتَ يا أبا معروفٍ؟

ـ تفضَّل يا مؤدب الصبيان أهلاً وسهلاً بك.

ـ أينَ أنْتَ يا أخي، هلْ تدري ما حَصَلَ لمعروفٍ؟

ـ فزعتْ أمُّهُ قائلةً:

ابني معروف ماذا حصلَ لهُ؟ أخبرنا بسرعةٍ.

لا تقلقي يا أمَّ معروفٍ الولد بخيرٍ ولكنَّهُ..

ـ أخبرنا ماذا حصل له.

ـ أظن أنه جُنَّ، أو أصابَهُ مسٌّ، أقولُ لهُ: قلْ: ثالثُ ثلاثهٍ، يقولُ: لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ اللهِ، ما هذا يا أخي مَنْ يعلِّمُهُ ذلك؟ هلْ دخلتمْ في دينِ الإسلامِ؟

ـ اطمأنَّ والداه، فقد ظنا أنَّ مكروهًا قد حصلَ له، عند ذلكَ قال فيروز: اهدأ سنتصرَّفُ معَهُ، وسنجعلهُ يعودُ كما تريد وكما هُوَ ديننا دينُ النصارى.

إنه طفل صغير لا يعي ما يقول، والله لقد ساءنا ما فعل.

انتظرَ فيروزُ وزوجتُهُ معروفًا بفارغِ الصبرِ، ولـمَّا دخلَ إلى المنزلِ استقبلاهُ بالسَّبِ واللومِ.

ما هذا الذيْ كنتَ تقولُه للمؤدبِ يا معروف؟

ـ ما قلتُ إلاَّ الحقَ.

ـ ماذا أصابكَ يا بُنيَّ

ـ أصابني الخيرُ الكثيرُ إذْ هداني اللهُ إلى دينِ الحقِ

ـ والدينُ الذي نحنُ عليهِ؟

ـ إنَّهُ دينٌ محرَّفٌ باطلٌ، إنَّ الدينَ عند اللهِ الإسلامُ

ـ منْ علَّمكَ هذا الكلامَ يا معروفُ

أتعلمهُ في كلِّ مكانٍ، إذا نظرتُ إلى السماءِ أعرفُ أنَّ اللهَ واحدٌ، وإذا نظرتُ إلى الجبالِ، والنجومِ والبحارِ أرى آياتهِ.

ولَهُ في كلِّ شيءٍ آيةٌ   تَدلُّ على أنَّهُ الواحدُ

ـ يا للعجبِ العجابِ، وتحفظ أشعارَ المسلمين أيضًا!!.

حاولَ الوالدانِ أنْ يثنيا ابنهمَا الصغيرَ عنِ الإسلامِ ولكنهما فشلا، هدداهُ

وتوعداهُ ولكنَّهُ كانَ أشدَّ صلابةً منَ الجبالِ، بلْ أخذَ يدعو والديهِ إلى الإسلامِ، ويثبتُ لَهُما خطأَ ما يعتقدانه. لم يجدِ الأبُ وسيلةً إلا قامَ بها، لكنه فشلَ، ضربَهُ وأهانَهُ وشتَمَه، وأخيراً وبعدَ أنْ عجزَ عنْ ردّه إلى ما كان عليه، قامَ وحبسَهُ في غرفةٍ صغيرةٍ.

وكانَ ينظرُ إليهِ كل يومٍ من النافذةِ، ويحاولُ معَهُ أنْ يتركَ دينَ الإسلامِ، وكانتْ أمُّه تشفقُ عليهِ، وتناولُه بعضَ الطعامِ والشرابِ، وذاتِ يومٍ وبينما كانَ أبو معروفٍ في عملهِ، فتحتْ أمُّه البابَ وأخذتْ تتوددُ لهُ وترجوهُ أنْ يكفَّ عما هو فيهِ، وبعدَ أنْ يئستْ منهُ دخلتْ إلى المطبخِ لإحضارِ بعضَ الطعامِ لَهُ.

نظر معروفٌ إلى بابِ المنزلِ فوجدَهُ مفتوحًا، وبينما أمُّه منهمكةً في إعدادِ الطعامِ انطلقَ خارَج البيتِ يعدو تاركًا الكرخَ وراءَهُ، وظلَّ يعدو تارةً ويمشي تارة حتى رأى شجرةً باسقةً فجلسَ تحتها لينالَ قسطًا من الراحةِ، وبينما هو مستغرق في تفكيرهِ إذ مرَّ عليهِ غلامٌ يكبرهُ قليلاً فقال:

– السلامُ عليك يا أخي

– وعليكمُ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه.

– أراكَ متعبًا منهكًا هل أستطيعُ أنْ أساعدَك

– هل لي أن أتعرفَ إليك؟

– اسمي علي بن موسى أَسْكن قريبًا من هنا.

– باركَ اللهُ فيكَ يا أخي.

– ومن أنت؟

– أنا معروف وصلت حالاً من الكرخ.

واستمرَ الحوارُ ساعَةً؛ فعلمَ عليٌ قصةَ معروفٍ؛ فأعجب به إعجابًا شديدًا، وأصرَّ أنْ يصحبَهَ إلى بيتهِ، وأنْ يكونَ في ضيافةِ أسرتهِ، حيثُ أبوهُ إمامُ المسجدِ في المدينةِ.

صحبَ معروفٌ عليًا ودخلا البيتَ، وأخبر أباهُ وأمهُ بقصتةِ فخرجا وسلمًا عليهِ ورحبا بهِ ترحيبًا لائقًا، وقالا له: إنَّ هذا البيتَ بيتُكَ، فأنت واحدٌ منا وسنعاملك كأولادنا.

فرحَ معروفٌ منْ هذهِ الأسرةِ التي عاملتهُ معاملةً حسنةً وازداد فرحُهُ وهُوَ يذهبُ كلَّ يومٍ إلى المسجدِ الذيْ كانَ قريبًا من سكنه وانتظم مع عليٍّ في حلقاتِ العلمِ، يتعلمانِ القرآنَ الكريمَ، والحديث الشريفَ، والفقهَ والتجويدَ وكثيرًا منَ العلومِ الشرعيةِ.

مرَّتْ سنتانِ ومعروفٌ مواظبٌ على دروسهِ في المسجدِ وكانَ مسروراً من العلم الغزير الذي تفقه به.

كان والداه في حالةٍ يُرْثَى لها، لقد بحثَا عنْهُ كثيرًا، وتأثرا وندما على ماقامًا بهِ، وكادا يهلكانِ جزعًا عليهِ، وكانا يقولانِ: ليتنا نجده، فلو وجدناهُ لدخلْنَا في الدين الذي هُوَ فيهِ ما دامَ هذا يرضيهِ.

وقد اشتاق معروف أيضا لوالديه، وكانَ كثيرَ الدعاءِ لهُما بالهداية، وكانَ مما تعلمهُ في المسجد، قولهِ تعالىَ: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾.

فسأل شيخه عن تفسيرها، فسرَّه ذلك.

قررَ أن يعودَ إلى الكوخِ، ليرى أبويهِ، علَّهما يدخلانِ في دين الإسلامِ، وإنَّ لم يدخلا فهُو سيصاحبُهما بالمعروف في الدنيا.

ودَّعَ معروفٌ أبا علي وأسرتَهُ وقد أصرُّوا على أن يرجع إليهمْ بعد أن يطمئن على والديه وأحضروُا لهُ حمارًا ليحمله إلى الكرخِ وأعطوهُ بعض الطعام وقربةَ ماءٍ ودعوا لهُ بالتوفيقِ والثباتِ.

ركبَ معروفٌ الحمارَ بعد أنْ شكرَ أبا عليٍّ وأسرتَهُ وصديقه عليًا، وسارَ حتَّى وصلَ الكرخَ قبلَ أذانِ العشاءِ، اقتربَ من بيتهِ وطرقَ البابَ.

صاحَ الوالدانِ بصوتٍ خافتٍ: منَ الطارقِ؟

ـ أنا معروفٌ

ـ معروف أين أنتَ يا بُنيَّ؟

ـ إنني هنا أطرقُ البابَ

ـ على أيِّ دينٍ أنت؟

ـ على دينِ الإسلامِ أمَا تعلمانِ؟

ـ ادخل فنحنُ على دينك يا بنيَّ.

دَفَعَ معروفٌ البابَ وهُرِع نحو والديه معانقًا وذرفتْ دموُعُهم فرحًا وأخذَ معروفٌ يقولُ: الحمدُ للهِ الذي جمعَ شمْلَنا على الهُدَى.

وهكذا كانتْ طفولةُ معروف الكرخي الذي فرَّ بدينه قويًا شامخًا وهو غلامٍ صغير. وتابع مسيرته في طلب العلم حتى غدا شيخًا كبيرًا يشارُ لهُ بالبنانِ.

وعلَّم والديه أصولَ الدين كما كانَ يعلِّمَ الناسَ في المساجِد، ولم ينس عليًا وأباه وامه، فكان يزورهم كلما سنحت له الفرصة واشتهرَ بالورعِ

والتقوى وكانَ مشهوراً بإجابةَ الدعوةِ.

كانَ ذاتَ يومٍ قاعداً على شطٍّ نهرِ دجلةَ معَ بعضِ أصحابهِ، فمرَّ بهمْ صبيانٌ في زورقٍ يصرخونَ ويتمايلونَ وقد أُغْرِقوا بالملاهي، فقالَ لهُ أصحابُهُ: أما تَرى هؤلاءِ يعصونَ اللهَ تعالى على هذا الماءِ؟

– وماذا أملك لهم؟

– ادعُ عليهم.

رفعَ معروفٌ يديهِ إلى السماءِ وقالَ: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدُّنيا أسألُكَ أن تفرِّحَهمُ في الآخرةِ.

فقالَ لهُ أصحابُهُ: إنَّما سألناكَ أنْ تدعوَ عليهمْ ولمْ نقل لك ادعُ لهمْ فقالَ:

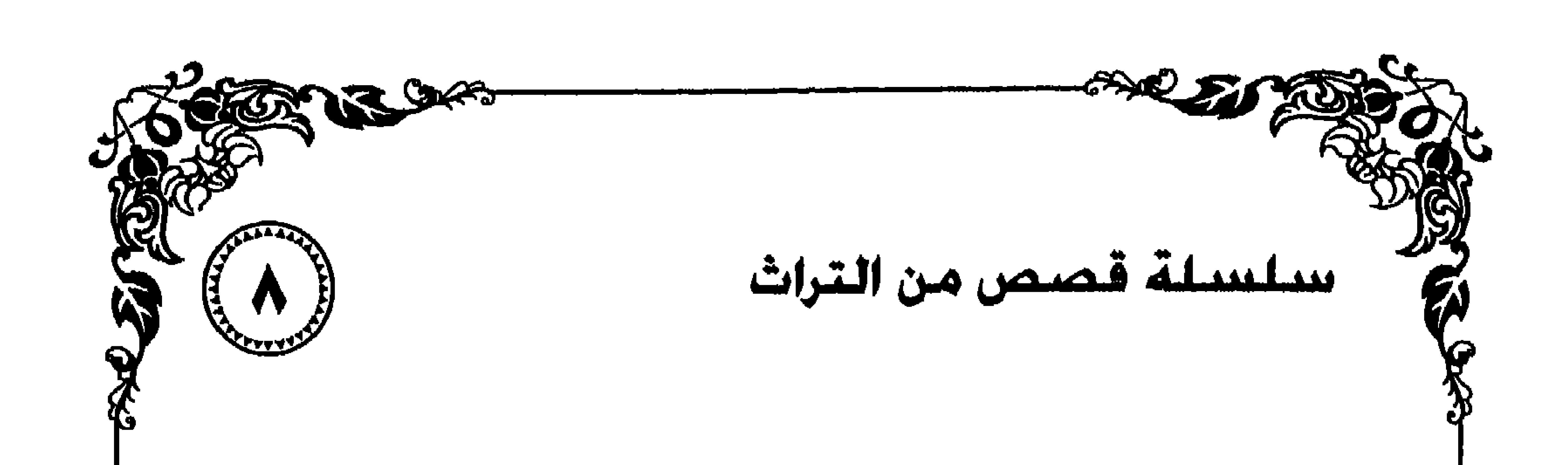
إذا فرَّحهم اللهُ في الآخرةِ تابَ عليهمْ في الدُّنيا ولمْ يضرَّكمْ ذلكَ.

وبعد أيامٍ شوهدَ الصبيان يدخلونَ المسجدَ تائبين آيبين إلى الله عز وجل وقد دهش أصحابُه من سرٍّ هذه الدعوة المباركة.

عاشَ حياتَهُ متقشفًا زاهداً، يتصدَّقُ بكلِ مايصلُ إليهِ للفقراءِ

والمساكينِ، وقيلَ لَهُ في مَرضهِ أَوْصِ، فقالَ إِذا متُّ فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحبُّ أنْ أخرجَ منَ الدنيا عُرْيانا كَمَا دَخَلتُها عُرْيانًا.

رحمك الله يا معروف الكرخي وجعل مأواك الجنة.



سلسلة قصص من التراث

٨

فتية أذكياء

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

فتية أذكياء.- الرياض.

١٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٣ - ٩٨٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان   ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١   ٢٢/١٠٤٥

ردمك: ٣- ٩٨٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠   رقم الإيداع: ٢٢/١٠٤٥

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

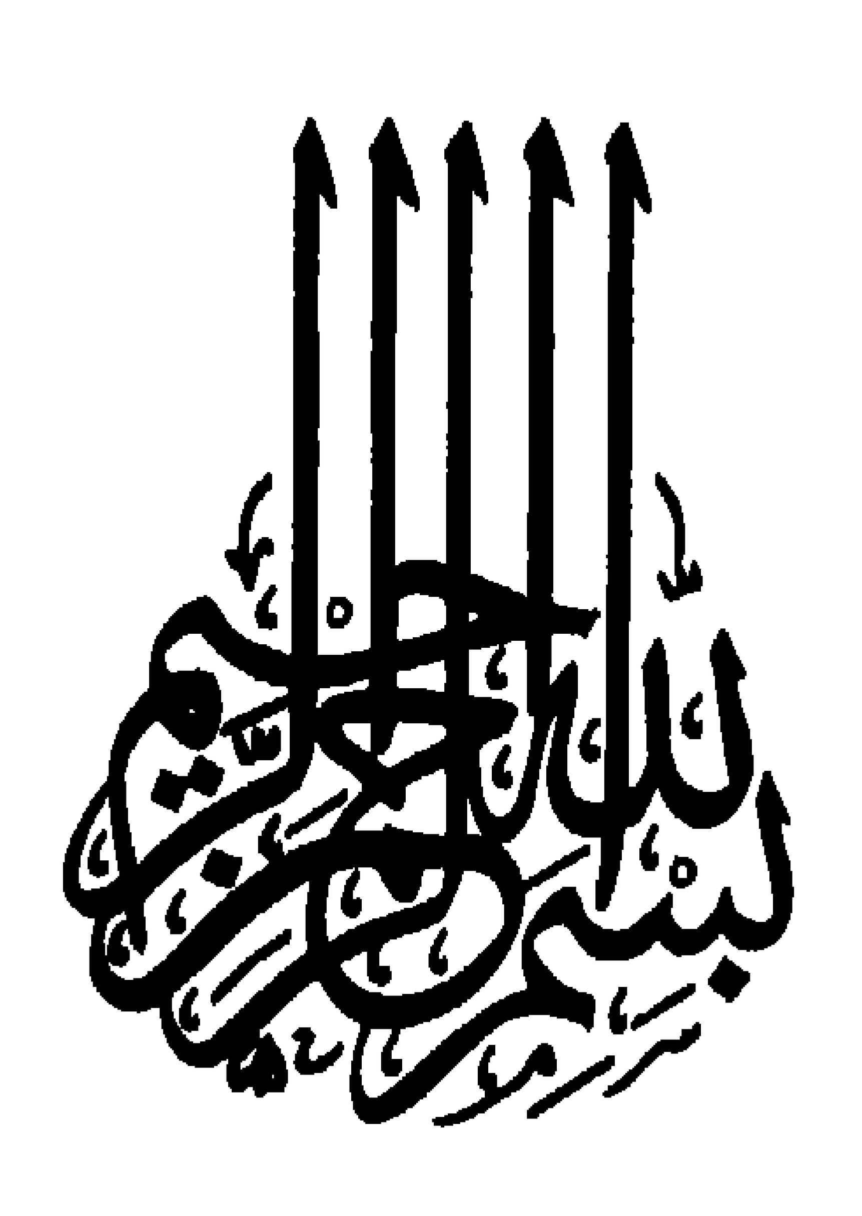
الناشـــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



وصل الحجاجُ بنُ يوسفَ الثقفيُّ إلى العراقِ لإخمادِ الفتنِ والاضطرابات بأمرٍ من أمير المؤمنين عبدِ الملك بن مروانَ القابعِ في دمشقَ.

دَخل مسجدَ الكوفةِ، وصعدَ المنبرَ وهو ملثمٌ ولمْ يتكلمْ بكلمةٍ فاستخفَّهُ الناسُ، وحدثَ هرجٌ ومرجٌ وهو ساكتٌ ينظرُ يمينًا وشمالاً، فلَّما رأى المسجدَ قد غُصَّ بأهلهِ قالَ: هَلِ اجتمعتْم؟ فلم يردَّ عليهِ أحدٌ شيئًا، ثم انتظر قليلاً ثانية هل اجتمعتْم؟ فخفَّ الهَرْجُ والمرجُ[1]، وصاحَ رجلٌ من القومِ: قد اجتمعنَا، أصلحَ اللهُ الأميرَ وأصلح بني أميةَ الذين يولُّونَ ويستعملون على العراقِ مثلكَ، فضيَّعَ اللهُ العراقَ حيثُ كنْتَ أنتَ أميرها..

كشفَ الحجاجُ عن لثامِهِ،ونهضَ قائمًا وأخذَ يَرْعُدُ في المسجد: واللهِ إني لأرى رؤوسًا قد أينعَتْ، وحانَ قطافُها، وإني لَصَاحِبُها، وإني لأرَى الدماءَ ترقرقُ[2] بينَ العمائمِ واللِّحى...» سكَتَ القومُ كأنَّ على رؤوسهمُ الطيرَ، وأخذَ الحجاجُ يتوعدُ ويهددُ الخارجينَ على الدولةِ، ويحذرُ أصحابَ الفتنةِ منْ تماديهمْ

لمْ تكنِ المهمةُ يسيرةً، فقد ظلَّ الحجاجُ شهوراً وهو يعالجُ هذهِ الاضطراباتِ، فقدْ كانَ يُسَيِّرُ الحملاتِ لقتالِ الخوارجِ، ويفتحُ السجونَ لكل

(١) الهرْجُ والمرْجُ: كلام الفتنة.

(٢) ترقرقُ: تسيلُ.

المناوئينَ لهُ ولدولتهِ، وكانَ يخطبُ الخطبَ المروِّعةَ في كلِّ جمعةٍ يتهددُ فيها ويتوعدُ.

وكثيراً ما كانَ يمنعُ التَّجوالَ في الليلِ إذ كانَ يرسلُ جنودَهُ وشرطتَهُ تتعسس[1] الطرقاتِ هنا وهناكَ علَّهم يجدونَ مخالفًا لأوامرِ الحجاج. والتزمَ الناسُ بيوتَهمْ، وخافوا على أرواحِهمْ وقدَّمْ أكثرهم الطاعةَ للأميرِ الجديدِ بعد أن عرفُوا قوتَهُ وبطشَهُ.

وذاتَ ليلةٍ وبينما كانَ صاحبُ الشرطةِ يطوفُ في شوارع الكوفةِ أبصرَ منْ بعيدٍ ثلاثةَ فتيانٍ يتجولونَ، فأسرعَ نحوَهمْ وأمر جنودَهُ بإحاطتهم، والقبضِ عليهمْ وتفتيشهم ثم اقترب منهم وسألهم:

منْ أنتمْ حتَّى خالفتمْ أمْرَ الحجاجِ بنِ يوسفَ وخرجتمْ في مثلِ هذهِ الساعةِ منَ الليلِ؟ ألا تعلمونَ عقوبةَ المخالفِ؟ أمَا سمعتم بقرارِ منعِ التجوالِ في المدينةِ؟.

تشاورَ الأصدقاءُ الثلاثَة همسًا، فانتبهَ لهم صاحبُ الشرطةِ، وصرخَ فيهمْ

هيَّا قولوا منْ أنتمْ حتَّى تحديتمْ قرارَ الحجاجِ؟ اقتربَ الفتَى الأولُ منهُ قائلاً:

(١) تتعسس: تطوف بالليل لتحرسَ الناس.

أناَ . . . أَلا تدري مَنْ أَنَا؟

لا ، قلْ لي منْ أنتَ أيُّها الغُلامُ؟

أنــا ابْــنُ مَــنْ دانــتِ الـرقـــــــابُ لَـهُ
مــا بين مــخــزومــهــا وهاشــمــهــا
تـأتـيــــهِ بـالـرغـمِ وَهِـيَ صــاغِـــرةٌ
يأخـــذُ مِنْ مَــالِهــا ومِنْ دَمِــهــا

خافَ صاحبُ الشرطةِ، ورجعَ إلى أصحابهِ يشاورهمْ وهو يقولُ لعلَّهُ من أقاربِ أميرِ المؤمنينَ، إنَّ أباهُ قد دانتْ لَهُ رقابُ بني هاشمٍ وبنيْ مخزومٍ وهما من خيرِ العربِ، بلْ منْ أشرفِها. واقترحَ على جنوده أنْ يفرجَ عنهْم، حتَّى لا يقعَ فيما لا تُحمدُ عُقْبَاهُ، ولكنه أحبَّ أن يتعرف على صديقيه، فاقترب من الفتى الثاني وسألَهُ: مَنْ أنْتَ أيُّها الفتىَ الكريمُ؟ فقالَ:

أَنَا، ألاَ تعرفني؟

لا أعْرِفُكَ، أرجوُ المعذرةَ يا أخَا العربِ

قال الفتى:

أَنَـا ابْـنُ الَّـذي لا يـنـزلُ الـدهـرَ قِـــــدرُهُ
وإنْ نـزلـتْ يَـومًــا فـســوفَ تـعــودُ

تَرَى الـنَّـاسَ أفـــواجًـــا إلىَ ضـــوءِ نـارِهِ
فَـمِـنْـهُـمْ قِــيَــامٌ حَــوْلَـهُ وَقُــعُــودُ

– أهلاً وسَهلا بكَ، وبأبيكَ.

التفتَ صاحبُ الشرطةِ إلى جماعتهِ قائلاً:

لعلَّ هذا الفتى منْ أحفادِ حاتم الطائيِّ، أو من أبناء المهلبِ بن أبي صفرةَ الرجلُ الذي تعرفُ العربُ كرَمَهُ وسخاءَهُ.

واقتربَ من الفتى الثَّالثِ وحيَّاهُ تحيةً عاطرةً وسألهُ:

وأنت يا أخا العربِ منْ تكونُ؟

– أنا ألا تعرفنيَ؟

– لا أعرُفكَ، وأظنُكَ أيضًا منْ أشرافِ العربِ كصاحبيكَ!!

صاحَ الفتىَ:

أَنا ابْنُ مَنْ خَــاضَ الصُّــفــوفَ بـعــزمِــه
وقَــوَّمَــهــا بالسَّـيفِ حــتَّى اسـتــقلتِ

ركـــاباهُ لا تفـــتكُ رِجْـــلاهُ مِنّهُـــمَـــا

إذا الخَـــــيلُ في يَوْمِ الكـريهـــــةِ تولّتِ

– ما شاءَ اللّهُ يا أخي، أبلغ سلامي لأبيكَ، وباركَ الله فيكَ وفيه، إنَّ هذهِ الشجاعةَ التي رأيتُهَا لابدَّ أنْ تكونَ قدْ أتتكَ منْ فارسٍ شجاعٍ لا يملُّ من خوضِ المعاركِ والحروب.

التفتَ صاحبُ الشرطةِ إلى أصْحَابه، أخذَ يتداول الأمرَ فاقترحَ الإفراجَ عنهْم حالاً، ولكنَّ بعضَ رجالهِ اقترحَ أنْ يصحبوهُمْ إلى دارِ الشرطةِ، ويرفعَوا أمرهم للحجاج حتىَّ يبتَّ في أمرهمْ. فقد خشوا أن يشيَ[1] أحدٌ بهم إلى الحجاجِ متهمهم بالتهاونِ أو بأخذِ رشوةٍ أو غيرِ ذلكَ.

وافق صاحبُ الشرطةِ على هذا الاقتراحِ، ولكنَّهُ شرطَ على أصحابهِ أنْ يعاملوهم معاملةً تليقُ بهمْ، وألاَّ يتعرضَ أحدٌ لهم بالضربِ أو الإهانةِ أو التوبيخِ، واقتربَ من الفتيان الثلاثةِ وقالَ لهُمْ أيُّها الفتيانُ الأنجابُ، يا أبناءَ الشجاعةِ والكرمِ، لوْ سمحتمْ أنْ تأتوا معنا إلى دار الشرطةِ حيثُ لا نستطيعُ الإفراجَ عنكمُ إلا غداً، لأنَّ الوقتَ الآنَ متأخرٌ والناسُ نيامٌ، وأُقسِمُ لكم ألاَّ يتعرضَ أحدٌ لكم فأنتمْ في ضيافتنا حتَّى الصباحِ فقط.

(١) يشي: ينمُّ ويسعى للإضرار بالآخرين.

أذعنَ الفتيانُ الثلاثةُ لرغبةِ صاحب الشرطةِ وساروا مَعَهُ باحترامٍ وتقديرٍ، وهناكَ دخلُوا الدارَ: وهُيِّئَتْ لهمْ غرفةٌ مستقلةٌ حيثُ الأَسِرَّةُ والأغطيةُ النظيفةُ، وحيثُ الطعامُ والشرابُ وكلُّ مالذَّ وطابَ. أمضى الفتيةُ الثلاثةُ ليلتَهمْ في هذهِ الغرفةِ الجميلةِ وأخذوا يتسامرون ويذكرونَ ما حلَّ بهمْ، فساعة يتوجسونَ خيفَةً مما سيحصلُ لهمْ عندمَا يبزغُ الصباحُ، وساعةً يضحكونَ مما هُمْ فيه، ولكنهمْ بعد أنْ انتصفَ الليلُ انسحبوا إلى الأَسِرَّةِ الوفيرة وناموا نومًا هادئًا لم يناموا مثلهُ في حياتهم.

فلمَّا تنفس الصباحُ كانَ صاحبُ الشرطةِ على بابِ الحجاجِ يزفُ له البشرى السارة.

دخلَ عليهِ ليخبرهُ ما حصلَ الليلة الماضية، وقالَ لهُ:

احتجزتُ ثلاثةَ فتيانٍ منْ أشرافِ العربِ كانُوا يجولُون ليلاً، ولكنَّني عاملتهمْ معاملةً تليقُ بهمْ، وهمُ الآنَ في دار الشرطةِ بالصونِ والأمانِ وقد كنتُ سأفرجُ عنهم لما علمت شرفهم وحسبهم ونسبهم ولكنني أحببت أن أعرضَ الأمرَ عليك يا مولاي.

طلبَ الحجاجُ منْ صاحبِ الشرطةِ إحضارَ الفتيان في الحالِ؛ ليطَّلعَ على أحوالهم، وليعرف مَنْ هم الأشراف.

بعدَ لحظاتٍ كانوا في دارِ الإمارةِ وجهًا لوجهٍ معَ الحجاجِ فسأَلَ الأوّلَ: منْ أنت؟ فأجابه كما أجابَ صاحبَ الشرطةِ.. وسألَ الثاني وسأل الثالثَ وكانت إجابتهما كما أجابا صاحبَ الشرطةِ.

فكرَّ الحجاجُ مليًا، وأخذتهُ الدهْشَةُ، وتعجبَ منْ ذكائِهم وقالَ للأولِ:

– إنَّ أباكَ قدْ دانتْ لَهُ الرقابُ.

– نعمْ أيُّها الأميرُ.

– أنْتَ ابنُ حجامٍ[1]

وابتسمَ ابتسامةً بدتْ فيها أساريرُ وجههِ

وقالَ للثاني:

أنتَ ابنُ الذيَ لا ينزلُ الدهرَ قدرُهُ

– نعمْ أيُّها الأميرُ.

– أنتَ ابنُ فوَّال، يبدو أنَّ فول أبيك لذيذ الطعم.

وضحكَ الحجاجُ ضحكةً أضحكَ معَهُ صاحبَ الشرطةِ الذي اكتشف

(١) الحجامُ: مهنةُ مَنْ يمصُ الدمَ بالمحجمِ.

شدةَ غبائهِ، وأحس بالمقلب الذي شربهُ طوال الليل، وضحك أيضًا كلٌّ من كان في المجلس.

وقال للثالثِ:

– أنتْ ابن مَنْ خاضَ الصفوفَ بعزمهِ

– نعمْ يا مولايَ

– أنت ابن حائك يبدو أنَّ منسوجات أبيك جيدة

– نعمْ يا مولايَ

وضحكَ الحجاجُ بأعلى صوتِه، واستمرَ يضحكُ حتّى ضجَّ المجلسُ، وبعد أنْ هدأَ واستعادَ أنفاسَهُ قالَ:

عَلِّموا أولادكم الأدبَ والفصاحة والبيانَ، فوالله لولا فصاحتُهمْ لسجنتُهمْ أمدًا طويلاً ولجعلتهمْ عبرةً لغيرهم.

أيُّها الفتيان، انطلقُوا إلى بيوتكمْ وأبلغوا سلامَ الحجاجِ إلى آبائِكم الذين اهتموا بكمْ وعلموكمْ طرفًا من الأدبِ والشعرِ والحكمةِ. والتفت إلى الحاضرين قائلا: أيُّها الناسُ، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ الله وجهَهُ: الأدبُ كنزٌ عندَ الحاجةِ وعونٌ على المروءةِ، صاحبٌ في المجلسِ، أنيسٌ في الوحدةِ

تعمرُ به القلوبُ الواهيةُ[1]، وتحيا بهِ الألْبَابُ[2] الميتةُ وينالُ بهِ الطالبونَ ما حاولوا.

ثمَّ قالَ:

كنِ ابْنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أدبًا

يغنيكَ محمودُهُ عنِ النَسَبِ

إنَّ الفتى منْ يقولُ ها أناذَا

ليسَ الفتى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

فرحَ الفتيانُ الثلاثةُ منْ كلامِ الحجاجِ وبدتْ على وجوههمْ علاماتُ الرضى والسرورِ، وتقدَّم أولهمْ وقال: هلْ تأذنُ لي يا مولايَ بقولِ شعرٍ عن الأدبِ، فأنا أحفظ الكثيرمنهُ.

- تفضلْ أيُّها الفتىَ

قال:

لكلِّ شيءٍ زِينَةٌ في الورَى

وزينةُ المرءِ تمامُ الأدبْ

(١) الواهية: الضعيفة.

(٢) الألباب: العقول.

قـــــــــد يَـشْـــــــــرُفُ المـرءُ بـآدابـه
فـــيـنـا وإنْ كَـــــان وضــــيـع الـنـسـبْ

قالَ الحجاجُ أحسنت يا بني، فنعمتِ الزينةُ زينةُ الأدبِ. ونعم الشرف شرفُهُ.

وتقدم الثاني قائلاً وأنَا أتأذنُ لي يا مولايَ

– بكل سرورٍ

قال:

مَـــاليَ عَـــقِـلي وهـمـــتي حَـــسَـــبي
وَمَـــا أنا مَـــوْلى[1] وَمَـــا أنَا عَـــرَبي
إذا انْـتَـــــــمـى مـنـتـمٍ إلـى أحـــــــدٍ
فــــــــــإنـنـي مـنـتـمٍ إلـى أدبـي

قالَ الحجاجُ: ونعمَ الانتماءُ الذيْ أنتميتمْ إليهِ

وتقدمَ الثالثُ قائلاً: وأنَا يا مولاي أتأذن لِي:

ولِمَ لا؟، تفضل وقل ما عندك.

(١) مولى: مسلم غير عربي.

في النَّاسِ قـــومٌ أضــاعُــوا مَــجْــدَ أولِهـمْ

مــــافـي المكـارم والتـــقـــوى لـهـمْ أربُ

ســــــوءُ الـتـــــادبِ أرداهـمْ وأرذلـهـمْ

وَقَـــدْ يـزيـنُ صـــحـــيحَ المنصبِ الأدبُ

وفي الحـالِ ودَّعَ الحـجـاجُ الفـتـيـانَ الثـلاثةَ وأوصـاهم بالتـزود منَ العلمِ والأدبِ

انصرفَ الفتيانُ وهم مسرورون مما لاقوه.

نظرَ الحجاجُ إلى صاحبِ شرطتهِ وأخذَ يلومُه فضحكَ وأضحكَ الجميع.



٩

الحجاجُ والأميرُ

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

الحجاج والأمير.ــ الرياض.

١٦ ص، ١٧X ٢٢ سم ــ (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٣ ــ ٩٩٠ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠

١ــ القصص القصيرة العربية ــ السعودية

أ ــ العنوان ب ــ السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٨

ردمك: ٣ــ ٩٩٠ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٨

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

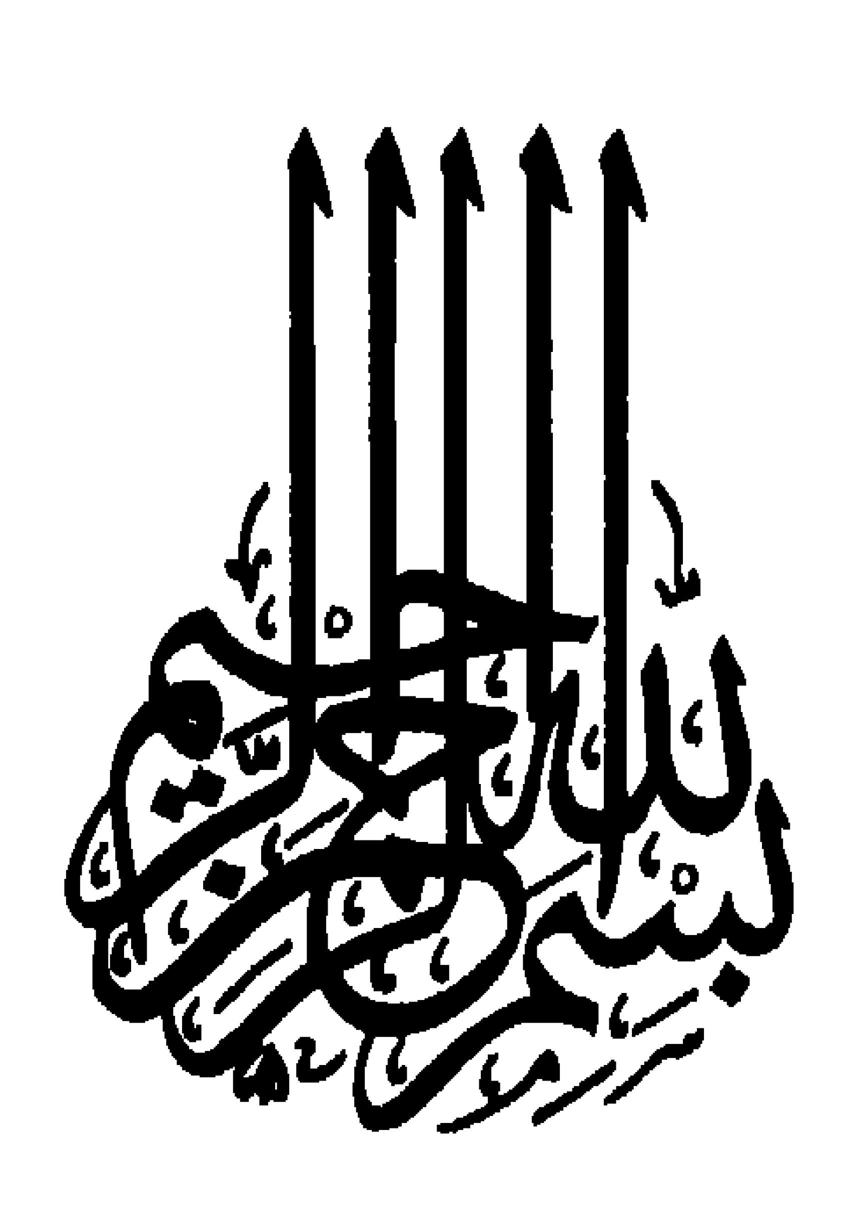
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



اشتهرَ يزيدُ بنُ المهلبِ بن أبي صفرةَ بالشجاعةِ والكرمِ، فقدْ وَرِثَ هاتينِ الصفتينِ عن أبيهِ المهلبِ الذي كانَ الساعدَ الأيمنَ للحجاجِ بن يوسفَ الثقفيِّ في العراقِ، ومنْ شدة إعجابِ الحجاجِ بالمهلبِ فقدْ تزوجَ ابنته هندًا وعيَّنهُ أميرًا على خراسانَ.

ولما ماتَ الملهبُ بنُ أبي صفرةَ، لم يكن أحدٌ أحقَّ بالإمارةَ منْ يزيدَ، فقدْ كانَ أهلاً لها بشهادةِ كلِّ مَنْ عرفهُ في زمنهِ، فقدْ كانَ شُجاعًا وكريمًا بلْ جوادًا سمحًا جريئًا لا يخشى في اللهِ لومةَ لائمٍ.

أمَّرَ الحجاجُ يزيدَ على خراسانَ، ففرحَ الناسُ هناكَ، وصاروا يقصدونَ دارَ الإمارةِ لسماعِ حديثهِ العذبِ، ويجلسونَ على موائدهِ التي كانتْ تعمرُ بألذِّ أنواعِ الطعامِ، والفاكهةِ، فقدْ كانَ يساعدُ المحتاجينَ بمالٍ وفيرٍ، وأعمالٍ تليقُ ببعضهم لتساعدهمْ على شظفِ العيشِ.

زارهُ صديقُهُ عقيلٌ منَ العراقِ فقالَ: رحبَ بي وأدناني من مجلسهِ وفي إحدى الليالي كنتُ أسمرُ معهُ وحولَهُ عددٌ من الرجالِ فأخذوا يتحدثونَ عن النساءِ والأولادِ ونعمةِ الزواجِ.

وأنا لمْ أتكلمْ فالتفتَ إليَّ يزيدُ وقالَ: إيهِ يا عقيلُ ألا تشاركنا الحديث؟ فقلتُ:

أَفاضَ[1] القومُ في ذكرِ الجواري[2]   فأمَّا الأعزبونَ فلنْ يقولُوا

فقالَ يزيدُ: إنكَ لَنْ تبقى عزبًا بعد هذا اليوم إن شاء الله.، فلمَّا رجعتُ إلى منزلي إذا أنا بخادمٍ قدْ أتاني ومعه جاريةٌ وقال: يقول الأميرُ انظر إليها فإن أعجبتَك فتزوجها وكان قد أحضر معه فرشٌ وأثاثٌ وصرةٌ بها مبلغٌ كبيرٌ من المال!

نظرتُ إلى الجاريةِ فأعجبتني فتزوجتها، وفتحت صرةَ المالِ فإذا فيها عشرةُ آلافِ درهمٍ ونظرتُ إلى الأثاث فإذا هُوَ فرشٌ وبسطٌ وأوانٍ وكلُّ ما يلزمُ البيتَ، وجاءَ الخادُ في الليلةِ الثانيةِ وأعطاني صرةً فيها عشرةُ آلافِ درهمٍ فمكثتُ عشرَ ليالٍ وأنا على هذهِ الحالة، فلما رأيتُ ذلكَ استكثرتُهُ فدخلتُ على يزيد فقلتَ لهُ: أيُّها الأميرُ، واللهِ قَدْ أغنيتَ ووفيتَ وزدتَ لي كثيراً وأنا لا أستحقُّ ذلكَ، فإنْ رأيتَ أنْ تأذنَ لي في الرجوعِ لأصحابي وأقاربي.

فقالَ: إنما أخيِّركَ بين شيئين إما أن تقيمَ فنوليكَ ولايةً تليقُ بك، أو ترحلَ فنغنيكَ فقلتُ: أو لمْ تغنني أيُّها الأميرُ.

قالَ: إنما هذا أثاثُ المنزلِ، لابدَّ للضيفِ منه، وهذهِ الجاريةِ حتى تقولَ

(١) أفاض: أكثر.

(٢) الجواري: النساء.

شيئًا في النساء، وهذا المالُ هديةُ الزواجِ.

ما أروع هذا السخاءَ، وما أجمل هذا الوفاءَ الذي لا مثيلَ لهُ!!

وهاكمُ قصةٌ أخرى من كَرَمِ يزيد..

حجَّ ذاتَ عامٍ وبعدَ أنْ نحرَ الإبلِ والبقر والغنمَ أراد أن يفكَّ إحرامَهَ فطلبَ حلاقًا ليحلقَ رأسَهُ، فجاءَ الحلاقُ مسرعًا لما علم أنَّه أميرٌ وظنَّ أنهُ سيأخذُ أجرًا يزيدُ عن درهمٍ أو درهمينِ قليلاً، لقد تمنى أن يحصلَ على عشرةِ دراهمٍ وهذا أكثر ما كان يأملُهُ من هذا الأمير ولما انتهي الحلاق من عمله صاحَ يزيدُ بغلامِه قائلاً: يا غلامُ أعطِه ألفَ درهمٍ..

صاحَ الحلاقُ: ألف درهمٍ!! ألف درهم! هلْ أنا في حُلمٍ أمْ في علمٍ!! لقدَ دُهِشَ كثيراً ولم يصدقْ ما جرى حولَه، وبعد أن رأى المال في يديه قال: سأمضي إلى أمِّي وأبشِّرها، ضحك يزيد وقال: أعطوه ألفًا أخرى، فقال الحلاق: امرأتي طالق إن حلقت رأسَ أحدٍ بعدكَ أيها الأميرُ الكريمُ قال يزيدُ: أعطوهُ ألفين آخرين!!

ماهذا السخاءُ؟ ما هذا الجودُ الفياضُ؟ لقد طارتْ شهرتُهُ في الأفاقِ حتىَ قالَ بعضُ أصحابهِ: إن السفنَ لتجري في جودِهِ، ولكنَّ هذا الجودَ والسخاء قد جرَّ عليه الويل والدمار، فكيف كان ذلك؟

لقدَ علِمَ الحجاجُ بسخائه، وعَلم بحبٌ الناسِ لهُ، فساءهُ ذلك حسداً وغيرةً، وخشيَ أنْ يأخذَ مكانَهُ، فصار يسعَى بالدسائسِ للخليفةِ الوليد بن عبد الملكِ الذي أصبح خليفة بعد وفاة أبيه ويوغلُ صدرَهُ عليه، أخذ الحجاج يتحين الفرص للإيقاع به، وذاتَ يومٍ طلبَ منهُ مئةَ ألفِ دينارٍ وجبتْ من خراجِ إمارتهِ، ولمْ يكن يزيدُ قَدْ جَمعها بعد، ولم يكنْ معهُ ما يفي بها من ماله الخاص فالسخاء لم يبقِ معهُ شيئًا، فوجدها الحجاجُ فرصةً لحبسهِ، فطلبَهُ في الحالِ، ووضعهُ في السجنِ وقرَّر ألا يُفْرجَ عنهُ مالمْ يتدبرْ أمرَهُ..

وُضِعَ في السجنِ مكبلاً، وأمرَ الحجاجُ السجانينَ بضربهِ وإهانتهِ، فضربوهُ وأهانوهُ، ولما عرفوا فضلهُ خففوا الضربَ عنهُ، بل صاروا يحبونَهُ ويستمعون إلى حديثهِ الشيقِ، وأُعجبَ بهِ السجانُ الذي كانَ يقومُ عليهِ، فأحبَّهُ حُبًا عظيمًا، وأصبح من أقرب الناسِ إليهِ، يجلب له الطعامَ والماء العذب، وكل ما يحتاجهُ فأرسلَ إلى أصدقائهِ أنْ يجمعوا لهُ مئةَ ألفٍ لافتدائهِ وسرعانَ ما جمعَ لهُ الأصدقاءُ المبلغَ فأرسلوه له.

تقدمَّ السجانُ منْ يزيدٍ وقالَ لهُ: خذْ هذا المبلغَ الذي حُبِسْتَ منْ أجلهِ لقدْ أرسلَهُ أصدقاؤكَ وأحبابُكَ.. لم يسرّ يزيدُ كثيراً مما فعلَ السَّجانُ فعاتبه ولامه ثمَّ قالَ لهُ: اتركِ المبلغَ معكَ.

وما أن خرج السجَّان من زنزانة يزيد حتى جاءَ الفرزدق الشاعرُ المشهورُ يزورهُ ثم قال للسجان: استأذنْ لي عليهِ، فقالَ السجَّان: إِنَّهُ في مكانٍ لا يمكنُ الدخولُ عليهِ فيهِ.

حاول السجان منعه من الدخول، ولما أعيته الحيلةُ قال له الفرزدقُ: إنما أتيت متوجعًا لمافيهِ، ولم آتِ ممتدحًا.

فأذنَ لَهُ، فلما رآهُ الفرزدقُ قالَ:

أبا خالدٍ ضاقتْ خراسانُ بعدكمْ
وقالَ ذوو الحاجاتِ: أينَ يزيدُ
فما قَطَرتْ[1] بالشرقِ بعدكَ قطرةٌ
ولا اخضرَّ بالمرْوَيْن بعْدَك عودُ
وما لسرورٍ بعد عزِّكَ بَهْجَةٌ
وما لجوادٍ بعد جُودِكَ جُودُ

فقالَ يزيدُ للسجانِ: ادفعْ إليهَ المئةِ ألفٍ التي جُمِعَتْ لنا ودعِ الحجاجَ يفعلُ بي ما يشاءُ.

قال السَّجانُ: ماذا تقول!! هذا الذي خفتُ منهُ لما منعتهُ الدخولَ

(١) قطرت: أمطرت.

عليكَ، أصرَّ يزيد على دفع المبلغِ للفرزدق، فدفعها السجان مكرهًا وهو ينظر إلى الفرزدق نظرة غضبٍ واستنكار.

ثمَّ دفعها إليهِ وانصرفَ مكث يزيدُ في السجنِ مدةً والسَّجانُ في دهشةٍ منْ أمرِ هذا الرجل لقد أتاهُ المالُ إلى السجنِ ليفدي به نفسَهُ وها هو يعطيهِ لشاعرٍ مدحه في أبياتٍ ثلاثةٍ!! وآثر أن يتحملَ العذابَ والهوانَ.

وذاتَ يومٍ صارَحَ يزيدُ سَّجانَه بأمرِ الفرارِ من السجنِ، فقالَ لَهَ: ما رأيكُ أنْ تسمحَ لي أن أهربَ منَ السجنِ.

فقال السجانُ، لوْ علمَ الحجاجُ لقطعَ رأسي، فإن كانَ لابدَّ من ذلك فَدَعْنِي أهربُ معكَ!!

جلسا معًا وأعدَّا خطةً للهروبِ، وذاتَ ليلةٍ في غسقِ الدجى، فرَّ يزيدُ وسجانُهُ متوجهينَ خارجَ الكوفةِ.

قالَ السجانُ: إلى أينَ ستذهبُ يا أبا خالدٍ.

– إلى الشامِ.

– إلى الشامِ حيثُ الوليدُ بن عبدِ الملكِ الذي أمر بسجنك!!

– نعمْ إلى هناكَ، وليقضي اللهُ أمرًا كانَ مفعولاً..

لم يصدق السجانُ أنَّ يزيدَ يريدُ الشامَ، ومن شدّةِ حبهِ لهُ سارَ مَعَهُ وأقسمَ ألاَّ يفارقَه، مهما آل إليه الحالُ.

ظلا سائرين يومًا بعدَ يومٍ في القفار والبوادي متوارين[1] عن جنود الحجاج، وليس معهما من الزاد إلا القليل، حتى كاد أن ينفد.

وذات يومٍ مرّا على أعرابٍ في باديةٍ، فوجدَا عجوزاً أمامَ خيمتِها فقالَ لسجانِه، اذهبْ واستسقنا منها لبنًا، فأحضرت العجوزُ اللبن فشربا حتى ارتويا.. ثم ذبحت لهما عنزًا صغيرة وأكلا منها أكلاً لم يجدا مثل طعمه ولما شبعا حمدا الله وشكرا العجوز على حسن صنيعها ثم قال للسجانِ كم بقي معنا من المالِ. قال مئة دينار.

– ادفعها إليها.

– قدْ نحتاجُ إلى هذا المال في هذهِ المحنةِ، قال السجانُ: هذهِ يرضيها اليسيرُ وهيَ لا تعرفكَ.

– إن كانَ يرضيها اليسيرُ، فأنا لا أرضى إلا بالكثيرِ، وإنْ كانتْ لا تعرفني فأنَا أعرفُ نفسي.

(١) توارى عن الأنظار: اختفى.

دفعَ السجانُ للعجوزِ كل ما معهما من مالٍ، ففرحتِ العجوزُ كثيراً، وتابعَ الاثنانِ سيرَهما قاصدين دمشقَ..

ولما اقتربا من دمشق، ولاحت مآذنها، وغوطتها الخضراء حتى فرحَ يزيدُ، وحزنَ السجانُ الذي قالَ لهُ: ها قدْ وصلنا دمشقَ بلدَ بني أمية الذين سجنوكَ في الكوفةِ فماذا سيفعلونَ بنا هنا!!

قالَ يزيدُ: لا تخفْ يا صديقي، سنذهبُ حالاً إلى قصر سُليمانَ بن عبدِ الملكِ.

صاحَ السجانُ: سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ، أخو الخليفةِ، وولي عهد المسلمين!!

- نعم يا صديقي.

وصل الاثنان إلى قصرِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، وهما في حالةٍ يرثى لها، فأكرمَهما وأحسنَ إليهما وأقاما عندَهُ، وسمع سليمانُ قصة يزيد، فأقسم له أن يجيرَهُ.

علمَ الحجاجُ من عيونه[1] أن يزيد وصل إلى دمشق وهو في قصر

(١) عيونه: جواسيسه.

سليمان بن عبد الملك. كتبَ الحجاجُ إلى الوليد يعلمهُ بذلك، وأنَّ الأمرَ للخليفة فيما يراهُ.

وصلتِ الرسالةُ إلى الوليد بن عبدالملك فقرأها، وسرعانَ ما كتبَ كتابًا لأخيهِ سليمان يطلبُ منه أن يسلّمه يزيد بن المهلب.

وصل الكتاب إلى سليمان فقرأه ، واحتار فيما يفعله، هل يستجيبُ لأمر الخيفة ويغضب ضيفه أم يغضب الخليفة ويرفض أمره؟.

كتبَ سليمانُ كتابًا لأخيهِ يقولُ فيه: يا أميرَ المؤمنينَ إني ما أجرتُ يزيدَ ابن المهلبِ إلا لأنَّهُ هُوَ وأبوه وإخوتُهُ قدَّموا خدماتٍ عظيمةً لدولتنا، ففتوحاتهم معروفةٌ، وشجاعتهم معلومةٌ، وسخاؤهم وكرمهم تعلمهُ العربُ والعجمُ، ولم أُجرْ عدواً لأميرِ المؤمنينَ، وقد كانَ الحجاجُ حبسَهُ وعذَّبهُ وأغرمَهُ ظلمًا، وقدْ صارَ إليَّ واستجارَ بي، فأجرتُهُ وأنا مستعدٌ لدفعِ أيِّ مبلغٍ عليهِ، فإنْ رأى أميرُ المؤمنينَ أنْ لا يخزيني في ضيفي فليفعلْ، فإنَّهُ أهلُ الفضلِ والكرمِ.

وصلَ الكتابُ إلى الوليدِ فقرأهُ، فاستشاط غضبًا وكتبَ إليه كتابًا آخرَ يقولُ فيه: إنَّهُ لا بدَّ أنْ ترسلَ إليَّ يزيدَ مغلولاً(1) مقيداً.

---

(1) الغُلُّ: طوق من حديد أو جلد يُجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

فتحَ سليمانُ الكتابَ وقرأهُ، وبدتْ عليهِ علاماتُ الحيرةِ والدهشةِ، ماذا يفعل؟ هل يطيعُ أميرَ المؤمنينِ ويسوقُ ضيفَهُ ويرسلُهُ إلى أمير المؤمنينَ، أمْ يتمردُ ويعصي أخاهُ ويجيرُ ضيفَهُ.

علِمُ يزيدُ بما في الكتابِ فأحضر حبلاً وقالَ لسليمان: أشكركَ على ضيافتي ولكنني أدعوكَ أن توثقني وترسلني إلى أميرِ المؤمنينَ، وباركَ اللهُ فيكَ فقد أجرتني ولا أطلبُ منكَ أكثرَ من ذلكَ.

أمسكَ سليمانُ بالحبلِ، وصاحَ في غلمانه، أحضروا إلي ابني أيوبَ!!

أسرَع الغلمانُ وأحضروا أيوبَ، أمسكهُ أبوهُ وقيدهُ ودعَا يزيد بنَ المهلبِ وقيدَهُ، ثم شدَّ قيدَ هذا إلى هذا بسلسلةٍ، وغلَّهما جميعًا بغُلَّين، وأرسلهَما إلى أخيهِ الوليدِ، وكتبَ إليهِ: أمَّا بعدُ، يا أميرَ المؤمنينَ فقدْ وجَّهْتُ إليكَ يزيد وابنَ أخيكَ أيوبَ بنَ سليمانَ، ولقدْ هممتُ أنْ أكونَ ثالثهما، فإنْ هممتَ – يا أميرَ المؤمنينَ – بقتلِ يزيدَ، فباللهِ عليكَ ابدأْ بأيوبَ من قبلِه، ثمَّ اجْعَلْ يزيدَ ثانيًا، واجعلني إن شئتَ ثالثًا، والسَّلامُ.

ودخلَ يزيدُ وأيوبُ في سلسلةٍ واحدةٍ إلى مجلسِ أميرِ المؤمنينَ الوليدِ بن عبد الملك، وراعهُ المشهدُ، وأُعطيَ الكتابَ فقرأهُ، وأطرقَ استحياءً وقالَ: لقد أسأنا إلى أخي سليمانَ؛ إذ بلغنا بهِ هذا المبلغ، ثمَّ أحضَر حداداً وأزالَ

عنهـما الحديدَ، وفكَّ وثاقهـما، فأخذَ يزيدُ يتكلمُ ويحتجُ لنفسهِ فقالَ لهُ الوليدُ: قد قَبِلْنَا عذرك، وعلمْنَا ظلمَ الحجاجِ، وها قدْ عفوتُ عنك، قال يزيدُ: بقيَ واحدٌ لوْ تعفو عنهُ يا أميرَ المؤمنين.

- ومنْ هُوَ يا يزيدُ؟

- أو قد هرب معك سجانٌ يا يزيد؟

- نعم يا مولاي:

قالَ يزيدُ: السَّجانُ الذي هربَ معيَ

- ضحكَ الوليدُ وقالَ: لقد عفونا عَنْهُ

أكرمَ الوليدُ يزيدَ بنَ المهلبِ وابنَ أخيهِ أيوبَ وأمرَ لكل منهما بثلاثين ألفًا وردَّهما إلى سليمانَ وكتبَ كتابًا للحجاجِ يقولُ فيهِ، لا سبيلَ لكَ على يزيدَ بنِ المهلبِ، فإياكَ أنْ تعاودني فيهِ بعدَ اليومِ.

سارَ يزيدُ إلى سليمانَ بن عبدِ الملكَ وأقامَ عندَهُ في منزلة عاليةٍ ومرتبةٍ رفيعةٍ، وأصبح يتنقل بين دمشق والكوفةِ وغيرهما من بلاد المسلمين حراً جريئًا لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما صارَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ خليفةَ المسلمينَ سيرَّه أميراً على خراسان وغيرها من بلادِ الشرقِ.

ولم ينسَ يزيدُ السجَّانَ الذي فرَّ معهُ فأكرمَهُ وأدناهُ من مجلسهِ، ولما رجعَ أَميراً على خراسان عيَّنه صاحبَ شرطتهِ.

١٠



العفو عند المقدرة

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

العفو عند المقدرة .- الرياض.

١٧ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٠ - ٩٨٣ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤١

ردمك: ٠- ٩٨٣ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤١

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

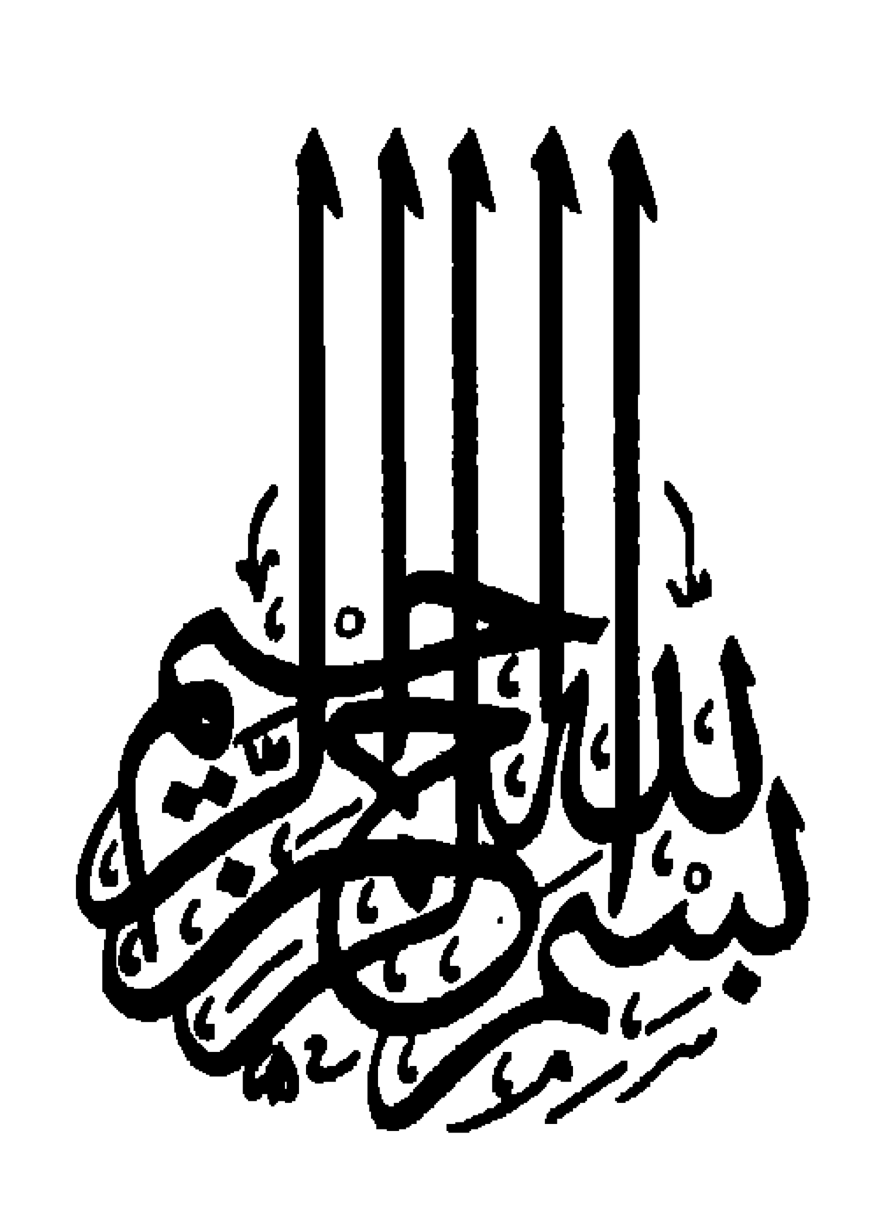
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



لَمْ يهنأْ لعمرو بن هندٍ بالٌ حتى يعرفَ سرَّ رجلين من قبيلة طيءٍ انتشرتْ أخبارُهما في الآفاقِ وأصبحتْ سيْرَتُهما على كلِّ لسانٍ، وكانَ عمرٌو هذا سيداً من ساداتِ العربِ في الجاهلية، وشاعراً مقداماً، وفارساً مغواراً، وكانتِ العربُ تفدُ عليهِ كلَّ عامٍ تسمعَ أشعارَهُ، ويسمع أشعارَها.

وذاتَ يومٍ وَفدَ رجالٌ من قبيلةِ طيئٍ على عمروِ بنِ هندٍ، فوجدَها فرصةً سانحةً لكشفِ سرِّ حاتم الطائي وأوس بن حارثة بن لأم اللذين كانا في مقدمةِ الوفدِ.

رَحَّبَ عمرو بوفدِ طيء وأكرمهم خيرَ إكرامٍ، وذاتَ ليلةٍ دعَا أوسًا إلى مجلسهِ الخاصِ وقال له: أَنْتَ أفضلُ أمْ حاتمٌ؟

فقال أوسٌ: أبيتَ اللعن، إنَّ حاتمًا أوحدُهَا وأنا أحدُها، ولو مَلكني حاتمٌ وملكَ جميعَ أولادي وأقاربي لكنا لهُ كرجلٍ واحدٍ، ألم تسمْع بكرمِ حاتمٍ وجودِه لأضيافه، ألمْ تسمع قولَهُ:

أُضاحِكَ ضيفي قَبْلَ إنزالِ رَحْلِه
ويَخصُبُ عندي والمحلُّ جَديْبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أنْ يكثرَ القِرَى
ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

فأين أنا منْ حَاتم!

ألمْ تردكَ أنباءُ حاتمٍ أيُّها الملكُ لقد كَانَ يُوقِدُ نارًا حتى يستدلَّ الأضيافُ على بيتهِ وكانَ يطلقُ سراحَ الغلام الذي يجلبُ ضيفًا ألم تسمع قوله:

أَوْقِدْ فإِنَّ الليلَ ليلٌ قرٌّ
والريحُ يا موقدُ ريحٌ صِرٌّ[1]
عَلَّ يرىَ نارَك مَنْ يَمُرُّ
إنْ جَلبَت ضيفًا فأنتَ حُرٌّ

وذاتَ يومٍ أيُّها الملكَ قام حاتمُ يضرب ابنَه، وقَلَّما يضرب أولادَهُ لقد ضرَبَهُ لأنهَ رآهُ يضربُ كلبته التي تدلُّ على أضيافِه فقالَ:

أَقولُ لابني وَقدْ سُطتُ[2] يديه
بكلبة لا يَزالُ يجلدُهَا
أوصيكَ خيراً بها فإِنَّ لهَا
عِنْدي يداً لا أزال أحمدُهَا
تدل ضيفي عليَّ في غلس اللـ
ـلِ إذا النار نام مُوقدها

(١) صر: شديد البرودة. (٢) سطت: ضربت بالسوط.

دَهِشَ عمرُو بين هند من شهادة أوسٍ لحاتم وكان يعرفُ تلك الأخبارَ ولكنَّه أحبَّ أن يختبرَ أوسًا ويرى موقفهَ من حاتم هلْ يغارُ منهُ؟ هلْ يحسده؟

وأخيرًا قالَ لَهُ: أعرفُ أنك شاعرٌ فهل قلتَ شيئًا في حاتِم، قال أوسٌ نعمْ قلتُ:

فتى لا يزالُ الدهرَ أكبرُ همِّه
فِكاكُ أسيرٍ أو مَعُونَةِ غارمِ[1]

أُعجبَ عمرو بن هندٍ من أوسٍ وأمرهُ بالانصراف وطلبَ أنْ يكونَ هذا الحديث سرًا بينهُمَا.

وفي الليةِ التالية طلبَ عمروُ بن هند من حاتمٍ أنْ يحضَر مجلسَهُ الخاصَّ فحضر فقال له عمروٌ: أَنْتَ أفضلُ أمْ أَوْسٌ؟

فقال حاتمُ: أبيتَ اللعنَ: وهَلْ أقارنُ بأوسٍ؟ إنَّ أصغر أوْلادِه أفضلُ مني!

وتابعَ حاتمٌ حديثه لعمرو بن هندٍ - وكأنكَ لمْ تسمعْ بأخبار أوسٍ وكَرَمِهِ إنهُ لم يبلغِ السيادة إلا بحلمهِ وخدمتهِ للعربِ حتىَّ أولادُه سارُوا سيرتَهُ ومشوا خطاهُ، والعربُ كلُّها تعرفُ ذلكَ.

(١) غارم: من لزمه دين.

ألم تسمعْ بابنته بهيسة عندما خطبَها سيدُ العربِ الحارثُ بن عوفٍ، لقدْ كان لها الفضلُ في الصلحِ بين عبسٍ وذبيانَ وإيقافِ الحربِ بينهما التي دامتْ أربعين عامًا، يومَ دخلَ عليها وأحضرَ الإبلَ والغنَم ونحر وأوْلَمَ وقال لها: قد أحضرتُ من المالَ ما تريدين، لقد عملتُ لكَ عُرسًا لم تسمعِ العربُ بمثله، فقالتْ لَهُ: لَمْ أهنأْ أبدًا ولمْ أسعدْ بهذا العرسِ فقالَ الحارثُ وَلِمَ؟ قالت له: أتستفرغُ لنكاحِ النساءِ، والعربُ يقتلُ بعضُها بعضًا؟، قال: فماذا تقولينَ؟ قالتْ: اخرجْ إلى القومِ، فأصلحْ بينهمْ، وتحمَّل دياتهم[1]، ثم ارجعْ إلى أهلكَ، فلنْ يفوتكَ ما تريدُ، وقام الحارثُ كما أشارتْ زوجُهُ ودفعَ دياتِ القتلى وأصلحَ بين العرب.

قال حاتمْ: هذا العملُ الذي تفاخُر بهِ العربُ ليْسَ منْ أوسٍ إنَّه من ابنتهِ فكيفَ أكونُ أنا أفضلُ منْ أوس؟!

وتابعَ حاتمٌ كلامَهُ: وأينَ أنا من أوسٍ، الرجُل الحكيمُ الحليمُ الفارسُ المقدام، ألمْ تسمع قولهُ: خيرُ الغنى القناعةُ، وشرُّ الفقرِ الخضوعُ، إنهُ بهذهِ الأخلاقِ ساد قبيلة طيءٍ، وسادني وهُوَ سيديْ وسيد أولادي وأهلي وعشيرتي...

---

(١) الدية: المال الذي يدفع لأهل القتيل.

سُرَّ عمروُ بن هند من شهادةِ حاتمٍ بأوسٍ كَمَا سُرَّ منْ شهادةِ أوسٍ بحاتم في الليلة الماضيةِ، وطلبَ منه أن يظلَّ هذا الأمرُ سرًّا بينهما.

ولما عَرَفَ عمروٌ أخلاقَ الرجلينِ أكرَمهما خير إكرامٍ وحباهما[1]، وطلبَ منهما أن يحضرا مجلسهُ كلَّما مرّا من دياره.

رجَع وفدَ طيء إلى دياره بعد أنْ قضوا بعض مآربهمْ، وسمعُوا بعضَ أشعارِ عمرو بن هندٍ وأشعار قبيلتهِ.

وذات يومٍ جاء الخبرُ إلى القبائلِ كلّها أنَّ ملكَ الحيرةِ النعمانَ بن المنذرِ يريدُ أنْ يجتمع معَ وفود منَ العربِ، فعلى كل قبيلة أن تختار نقيبًا يمثلها عند ملك الحيرة أصر حاتم الطائي على اختيار أوس وأقنع قبيلته بذلك، ولكن أوسًا قال لهم: كيف أذهب وحاتم بين ظهرانيكم، إنه زعيمي وزعيمكم، لا، لا لن أذهب، إنَّ حاتمًا هو أهلٌ لذلك.

لم يستطع أوس إقناع حاتم، بل لقد أصر حاتم على أوس أن يذهب ولم يجد أو س حيلة إلا استعملها مع حاتم حتى نفذ صبره، وأخيرًا قرر الذهاب للحيرة ليحضرَ الاجتماعَ، فذهبَ هناك فلمًّا وصَلَ وجد أنَّ زعماء القبائل قد سبقوه هناك فاجتمع معَ النعمان بن المنذر، فرحب به ترحيبًا لائقًا

---

(١) حباهما: قربهما وودهما.

بمكانتـه وأكـرم وفـادته وكـانَ قـد دعـا بحلة منْ حللِ الملوكِ، وقـالَ للوفـودِ احضرُوا في غد فإنِّي سأعُطي هذه الحلةِ لأكرمكمْ.

خرجت الوفودْ من مجلسِ النعمانِ، وكلٌّ واحدٍ منهم يتمنَّى أنْ يكونَ هُوَ أكرمُ العربِ وَهُوَ صاحبُ الحظوةِ عندَ النعمانِ.

فلمَا كان الغدُ تدافعَ القومُ كلُّهم إلى مجلسِ النعمانِ، إلا أوسًا فقيلَ لَهُ: لِمَ لا تحضرُ المجلسَ لعلك تكونُ صاحبَ الحلةِ!؟.

قـالَ أوسٌ: إذا كـانَ المرادُ غيـري منَ العـربِ فـهنيئًـا لَهُ بالحلة، فـأحبُّ ألاَّ أكونَ حاضرًا؛ فأخشى أنْ يكونَ في نفسي شيءٌ، وإذا كنتُ المرادُ فأُطلب.

نظر النعـمـانُ إلى ضـيـوفِه وكلٌّ واحـدٍ من الجـالسين ينظرُ إليـهِ علَّ نظراتِ النعمانِ ترمقهُ وتفحَّصَ وجوهَ القومِ مليًا وقلوبُ الجالسين تخفقُ، وكأنهم في امتحانٍ عسيرٍ، وبعد لحظاتٍ قال النعمانُ: أين أوسُ بنُ حارثةَ؟.

تعجبَ القومُ من ذلك، وقال أحدُهم تركناهُ في مجلسنَا.

فقالَ لصاحبهِ اذهبْ، واطلبْ منْ أوسٍ أنْ يحضر حالاً.

صار القومُ في حَيْرةٍ منْ أمرهم، وازدادَ همسُ بعضهم وأخيرًا حضر أوسُ بين يدي الملكِ فسلَّمَ عليهِ، فقامَ الملكُ وأثنى عليهِ وألبسه الحلة!!

لم يرقْ[١] لبعضِ القومِ ما حازَهُ أوسٌ، فحسدوه، وامتلأت قلوبهم غيظًا، ولم يدروا أن أوسًا لم يُسرَّ كثيرًا منْ هذا العطاءِ الذي تمناهُ كثير منهمْ رجعت الوفودُ إلى ديارها، والحاسدونَ يكنُّون لأوس العداوة والبغضاءَ.

واتفقَ ثلاثةُ أنفارٍ منهم على الانتقامِ من أوسٍ، واقترحَ أحدُهم أن يذهبوُا إلى شاعرٍ مشهورٍ ليهجوا[٢] أوسًا حتى يشفوا صدورهم!!

واتفقوا أنْ يقصدوا الحطيئة فذهبوا إليه وقالوا لَهُ:

اهجُ أوسًا ولكَ ثلاثمائة ناقةٍ فقد عرفنا هجاءَكَ اللاذعَ.

قال الحطيئة: كيفَ أهجو أوْسًا.

قالَ أحدُ الرجال: تهجوهُ كما هجوتَ كثيراً منَ الناسِ، قال الحطيئة: نعم لقد هجوت كثيراً من الناس حتى اشتهرت بذلك بل هجوت أمي، وهجوت نفسي أيضًا.

قالَ الحُطيئةُ: معاذَ اللّهَ أنْ أهجوَ أوسًا، إنَّني لا أردُّ المعروفَ بالإنكارِ.

قالوا: كيفَ ذلكَ؟

---

(١) يرق: يفرح ويهنأ.
(٢) الهجاء: السبُّ وذكرُ المعايبِ ويكون بالشعر غالبًا.

قال: والله مافي بيتى مِنْ أثاث أو مالٍ إلا منْ أوسٍ، فكيفَ أهجوهُ؟ خذوا نياقكمْ فأنا بغنًى عنها ثم قال:

كيفَ الهجاءُ وما تنفكُ صَالحةٌ ★★★ مِنْ أَهْل لأمٍ بظهرِ الغيبِ تأْتيْني

خرجَ الرجالُ وهمْ واجمونَ مكفهرونَ منْ إجابةِ الحطيئةِ التي لم ينقعوها منه.

خرجُوا يبحثونَ عنْ شاعرٍ آخرَ، فجابوا الوبار، وأخيراً وجدوا ضالتهْم في شاعرٍ يقال لهُ: بشرُ بنْ أبي خازمٍ منْ قبيلةَ بني أسد.

وافق بشرٌ على هجاءِ أوسٍ مقابلَ الثروةِ التي سيحصلُ عليها، وإنها لثروة عظيمة يحلم بها كل طامع جشعٍ.

وهجاهُ فأفحش في هجائِه، وذكرَ أمَّهَ سُعدَى بأشنعِ الصفات.

لامَ العقلاءُ منْ بني أسدٍ ما فعَلهُ شاعرُهم، وذكروُه بمعروفِ أوس في العربِ، وفضلِه عند كثيرٍ منهمْ، لكنَّ الطمعَ حلَّ محلَّ الإخلاصِ والمودةِ، ولم يكتف بشرٌ بقصيدةٍ واحدةٍ، بلْ نَظَمَ خمسَ قصائدَ انتشرتْ بينَ العرب انتشار النار في الهشيم(١).

(١) الهشيم: النبات اليابس المتكسر.

فـرحَ ذو النفـوسِ المريضـةِ، الحـاسـدونَ لأوسٍ مِنْ هذه القـصـائد، وشـفـتْ صدورَهـمْ مما كـانَ يـتـمـتـعُ بهِ أوسٌ مِنْ سـمـعـةٍ طيـبـةٍ لدى العرب كـافـةً وصلت القصائد إلى أوسٍ فسمعها وساءه ما فعل بشرٌ، وتكدرت أيامُه، وقررَ أن ينتقم منْهُ. لو كـان الهجاء لأوس وحده لما غضب هذا الغضب، ولكن هل يعقل أن يذكرَ حازم أمَّ أوس بأشنع الصفات. وهل يعقل لعربي أن يفعل هذا!!

جمع أوسٌ بعض الرجال من طيء، وسار بهمْ إلى بشرٍ فأغار على النوق الذي كسبها من هجائه فأخذها، ولحق به فهربَ منهُ، والتجأ إلى بني أسدٍ قبيلتهِ. طالبًا الحماية منها.

طلبَ أوسُ قبيلةِ بني أسدِ أنْ يسلموهُ بشراً، فمنعوهُ منهُ ورأوا تسليمَهَ عاراً وهذهِ كانت عادةُ العربِ في الجاهليةِ.

رَجعَ أوسٌ إلى قبيلتهِ وجمعَ المزيد من الرجال الشجعان وسارَ بهمْ إلى قبيلةِ بني أسدٍ والتقى الجمعان في مكان يقالُ له «ظهرُ الدَّهناءِ» فاقتتلُوا قتالاً شديداً، وانهزمت بنو أسدٍ وفروا وفرَّ معهم بشرٌ.

ضـاقُ بنو أسـدٍ منْ بشـرٍ ومما جـرّهُ عليـهـمْ، فطلبـوُا منْهُ أنْ يرحلَ عن قبيلتهم وأعلموهُ أنهم لا يوافقون فعلتَهُ، وإنما حموهُ في المرةَ الأولى ولن يحموهُ إذا طلبهُ أوسٌ.

خرجَ بشرٌ منْ ديارِ قبيلتهِ، ومرَّ على الديار والأحياءِ وكانَ يطلبُ منَ القبائلِ أن تحميَهُ، فامتنعوا عنْ حمايتهِ وإجارتِه منْ أوسٍ.

وأخيراً نزلَ على أحدِ الأحياء من بلاد تميم في جبل الصمانِ، فأجارَهُ جندب بنُ حصنٍ الكلابي، لما رآى ما آل إليهِ بشرٌ منْ هزيمةٍ وعارٍ فأشفق عليه.

علِم أوسٌ بالخبرِ، فأرسلَ إلى جندبٍ يطلبُ منهُ بشراً، ترددَ جندبٌ في تسليمِ بشرٍ وأرسلَ لَهُ أنَّه في حمايتهِ، وعارٌ عليهِ أنَ يُسلمهُ.

جمعَ أوسٌ قومَهُ وسارَ بهمْ إلى الصمانِ وغزا جندباً وقومَهُ ودارتِ المعاركُ بينَ الطرفين، وكان القومُ قَدْ أخفوا بشراً كراهيةَ أنْ يقتلَهُ أوسٌ وعلمَ أوسٌ بمكانهِ فلحقَ بهِ وتمكنَ منهُ حاولَ بشرٌ أنْ يطعنَ أوسًا ولكنَّ سيف أوسٍ كان أسرعُ منهَ فنالَ منه عدة ضرباتٍ أوقعتهُ جريحًا.

أمرَ أوسٌ أنْ يحملَ ويرجعَ معهمْ إلى بني طيء، وهناكَ وصل الجيشُ وبشرٌ مقيدٌ في الأغلالِ.. وجروحَه لم تلتئم بعدُ.

سارعَ أوسٌ إلى أمِّه قائلا: أبشريْ يا أمّي، لقد جئتكِ بالشّاعرِ الذي هجاكِ. وقدْ أقسمتُ أنْ أقتلَهُ قتْلَهً تحيين بهَا!

لم يصدقْ أوسٌ ما قالتهُ أمُّه سُعْدَى!!

قالتْ لَهُ: قبحَ اللهُ قومًا يُسودونكَ، أو يقتبسون مِنْ رأيكَ!

ماذا تقصدين يا أمي

اذهبْ وداو أسيركَ، واعتنِ به،

قام أوسٌ إلى بشرٍ يضمدُ جراحَهَ، ويطلبُ لَهُ الماءَ والطعامَ، وبعد أيام تماثلَ للشفاءِ ولما اطمأنَّ أوسٌ عليه ذهبَ إلى أمِّهِ وقالَ:

لقْد تماثلَ للشفاءِ، هَلْ استطيعُ أنْ اقتلَهُ الآنَ.

- يا بني، أَو خيرٌ مِنْ ذلكَ؟

- وما هُوَ:

إِنَّهُ لمْ يجدْ لَهُ ناصراً مِنْكَ، ولا مجيراً عليكَ، لقد طَرَدَته القبائلُ وإنَّا قومٌ لا نَرى في اصطناعِ المعروفِ من بأسٍ، فبحقي عليكَ إلا أطلقتَهُ.

- أأطلقهُ يا أمي وقد هجاكَ وهجاني.!!

أطلقهُ، وردَّه إلى أهله سالمًا فإنهم أيسوا منهُ فإنه لا يغسلُ هجاءَهُ إلا مدحُهُ، وأشيرُ عليكَ أنْ تردَّ عليهِ إبلَهُ، وأنْ تعطيَهُ مِنْ مالِكَ مثلَ ذلكَ، ومنْ مالي مثلَهُ.

قَبِلَ أوسٌ ما أشارتْ عليهِ أمُّهُ، وخرجَ إلى بشرٍ وقالَ لَهُ:

يا بشرُ، ما تظنُّ أني فاعلٌ بكَ؟

قال: العفوُ عندَ المقدرةِ يا أخا العربِ، فإنْ أحببتَ أنْ تقتلني فواللهِ استحقُّ ذلكَ، فالذي فعلتَهُ ندمتُ عليهِ، ولا يغسلُ هجائي إلا مدحي ثم قالَ:

وإنّي لأمحو بالّذي أَنَا صَادِقٌ
به كلَّ ما قدْ قلتُ إذْ أنا كاذبُ
فِدًى لابنِ سعدَى اليومَ كلُّ عشيرتي
بني أَسَدٍ أَقصَاهُمُ والأقاربُ

قال أوس:

إنَّ سعدى التي هجوتها قدْ أشارتْ بإطلاقِ سراحِكَ وردِّك إلى أهلكِ سالمًا غانمًا.

وأمَر بحلِّ وثاقه، وأعطاهُ منْ ماله مئةً من الإبلِ ومئةً أُخرى منْ مال أمّه وردَّ عليهِ ما كان أخذَ منهُ. وحملَهُ على فرسهِ النجيبِ الذي كانَ يركبهُ ويغزو بهِ، وسارَ مَعَهُ حتى بلغَ بلادَ غطفان، عندهَا لم يصدقْ بشرٌ ما رآه، فرفَع يده إلى السماءِ وقالَ:

اللهمَّ أنْتَ الشاهدُ على ألاَّ أَعودَ إلى شعرٍ إلاَّ أنْ يكونَ مدحًا في أوسِ بن حارثةً.

وهكذا عاشَ بشرٌ حياتَهُ كلَّها لا يقولُ قصيدةً إلاَّ في مدحِ أوسِ بن حارثةَ وأمِّه وقبيلتِه.





تراث كل أمة مصدر إلهامها ، ونبع ثقافتها ، منه تستقي الأجيال على مر السنين مايفيدها في نهضتها ورقي مجتمعها ، وتربية النشء على مكارم الأخلاق . ومما لا شك فيه أن سلسلة "قصص من التراث" تضع بين يدي أبنائنا صورا رائعة ، وأمثلة راقية تمثل شتى مناحي الحياة الاجتماعية ، حتى يتخذها هؤلاء الأبناء نبراسا لخير مسلك في المجتمع ، وأسلوب تربية أمثل يرقى بهم إلى مدارج العلا

وقد دأبت مكتبة العبيكان على عنايتها بالناشئة وتربويا ، ومن هنا جاء حرصها على نشر هذه الس لتجلو لأبنائنا كنوز تراثهم . فيعتزوا بهذا التراث و منه ما ينفعهم .

هذا والله من وراء القصد



العبيكان
Obeikan